رواية

مَطَارِحُ حَطِّ الطَّيرِ



ناصر الحلواني

رواية

مَطَارِحُ حَطِّ الطَّيرِ

ناصر الحلواني

الطبعة الأولى 1996

سلسلة "كتابات جديدة"

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب

1996/5318

ISBN **977-01-4780-x**

©الإصدار الثاني (PDF) 2019

نسخة معدَّلة

تصميم الغلاف والإعداد الفني للمؤلف

nasserhilwani@gmail.com

Nasser El Halawani

صورة الغلاف الأمامي: قصر الحمراء

لوحة الغلاف الخلفي: خروج الموريسكيين من الأندلس

إلى زوجتي

أميمة

الزاهرة في وجودي

وردة من رحيق الأرض

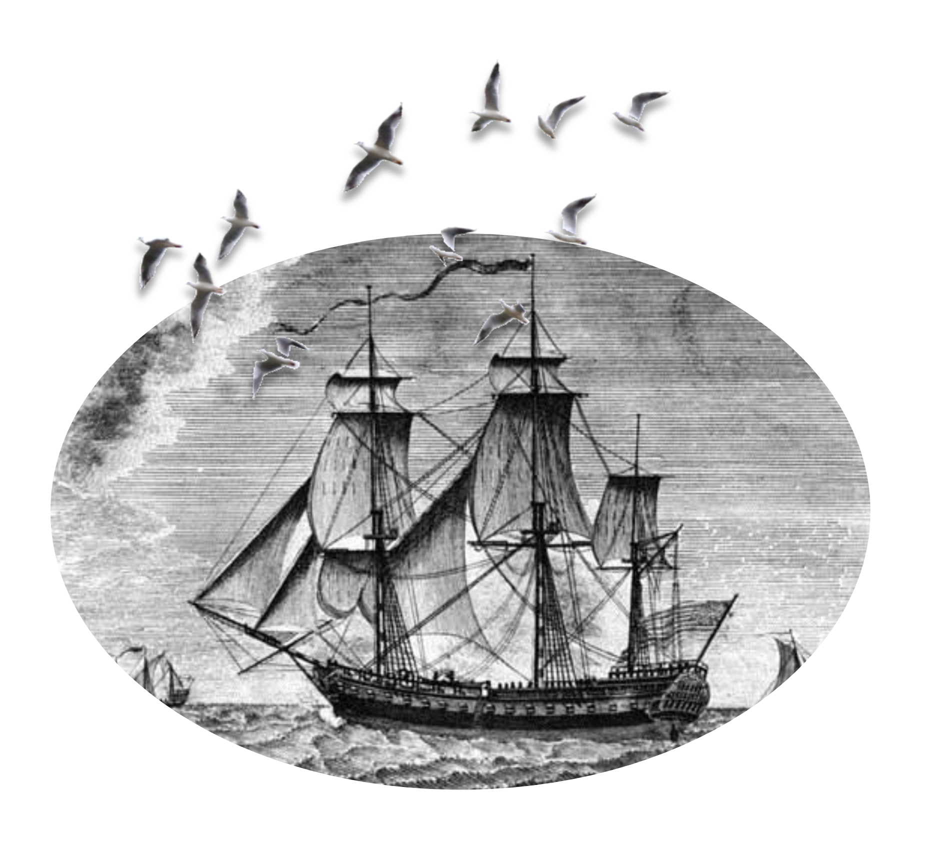
الحائمة في ملكوتي

نورا من ألق السماء



يُدركنا حُلم الطيران، فنُرانا طيورا، ذاهلين عن حقيقة أن التحليق إرادة، أن الطائر مجبر على الطيران، أما نحن، فنفعل بمشيئتنا، وبجربة نادرة. وتبقى المغالطة في فهمنا أن الفضاء الطبيعي هو المجال الأوحد لممارسة نشوة الحومان، إنه تماما مثل البيئة الطينية للدودة العمياء . فضاء طيراننا ليس هناك، بل هنا، يمتد إلى ما لا نهاية، إلى أبد الروح، إلى أفق الخيال، إن تحليقا في مثل هذا الفضاء ليحسدنا عليه الطير .

ناصر الحلواني



غِوايَةُ البَدْءِ

بينما يجتاز أبو عبد الله بابا جانبيا صغيرا في سور الحمراء، يطعن كولمبس بوابة عالم جديد، ثم يخرُّ جاثيا لربه، ليقوم وقلبه مفعم بالفرح، ليشرع بطمأنينة الفوز في إبادة شعب بدائي وحيد، نفذت فيه سيوف صِيغَت من معدن مفاتيح غرناطة.

هكذا صارت كف إيزابيلا الموطن السحري لتحوُّلِ المادة، وبدَت تلك اللحظة؛ التي تحول عبرها المفتاح المنهزم إلى سيف غازٍ، وكأنها أول النظرات إلى أسفل، وبدء الطريقِ إلى الجانب الآخرِ من الجَبَل.

نقطة، لم يعد بعدها ابن زياد، وابن حزم، والغافقي، والناصر، وابن رشد، سوى حروفٍ بَادَ وجودُها، وغَدَت الزهراء، وبيت المقدس، وحمراء غرناطة، مزارات سياحية، واستحالت المحاريب إلى هياكل، ومات الفرسان، ولاذ الإبداع بنفوس نجت بنفسها، فوق أطواف بسيطة تتمسك بها فوق

فيض جارف يَهُبُّ من جهة الشمال الجديد، إلى الجنوبِ المفتوحِ إلى أقصاه.

أتساءل ... هل كان لأبي عبد الله أن يحول بين بوابات غرناطة وخيل فرناندو وإيزابيلا؟

وتزداد قسوة السؤال ... هل كان بقادرٍ؟

هل أستطيع الامتلاء بقدر الحزن والألم اللذين احتشدا في قلب غرناطة، من دون أن أفنى، دون أن أستحيل ترابًا يتعلق بقُبَّة قرطبية، وأبقى هناك إلى الأبد، أرقب أسرابا عربية تلوذُ بالبحرِ، بالجبالِ القاسية، بالموتِ أو التعميد.

أو ربما يَصهرُنِي الخوف من جنود خَتَموا عُهودَ تَرْحَالي، شرط أن أزحفَ فوق شفرات سيوفهم حتى البحر.

فتنتابني أسطورةُ التحليقِ، فأقذف بنفسي إلى الفضاءِ، وأُحلِّقُ إلى أزمانِ أخرى، فيستبدّ بي رَهَقُ السفرِ، فأخَالَني صُوفيًا يملك إرادة الوصولِ، ووَجْدًا بقدْرِ الهوى في قلبِ المجنون، فأحُطُّ في

زمنٍ يمتطيهُ ثائرٌ، فأُوقِنُ باستعادة المفقود.

ولكنه يموت، قبل أن يموت، وقبل أن أبدأ رحلتي عبر متَاهَةِ الإبداعِ، قبل أن ينبُتَ القلَمُ في كَفِّي، أو تُثمرَ أشجارُ وجودي حروفهَا، فأصير إلى وطنٍ يعبرُ هزيمةٍ غائرة، ويستعيد أرضًا ملكناها وإن بدت كالمُستأجَرَة، ويفقد أبناءه عبر مضايق الهجرة، والحاجة، والجهلِ، وتبعيةٍ مبتدعة، وإبداعٍ مُستعار، وتحولاتٍ تترى؛ من شجرةٍ في إشبيلية ظللت على غرب الدنيا، إلى نبتة تتسلَقُ جُذوعَ أشجارٍ غربيةٍ، وتنفصلُ عن جذُورِها، ولا تَلْحَقُ إلا بالظَّاهر، من فيلسوفٍ علَّمَ غَوغاء محاكم التفتيش الحكمة والإنسانية، إلى هَوى لا يتجاوز الأعضاءَ، ومن تفانين عِمارَةٍ أرسَاهَا خلفاءٌ سادوا، إلى ملابساتٍ مبهمة الأصل لبناءاتٍ لا تَمَسُّ إلا المؤقَّت، ومن شعبٍ يُبدِعُ وجودَهُ، إلى شعبٍ يستدينُ يَومَهُ.

هل كان عليك أبا عبد الله أن تُلقي بمفاتيح غرناطتنا إلى كفِّ إيزابيلا اللاهية.

وهل كان عليَّ سوى منازلة أفلاطون في ساحة مُثُلِهِ المتعالية بمُثُلِي المتحققة بالفعل !

سوى أن أرسم إنسانًا يحملُ في كِيانِهِ هذا التَّاريخ، وتلك الحضارة، فيما يحيا هذه الحياة النقيضة !

إنسانٌ معلَّقٌ بين عالمِهِ الذي لا يُدركُهُ إلا بالحِسِّ، وعالَمٍ اغترابي لا يمَسُّهُ، أيضا، إلا بالحِسِّ !

هل كان للحرُوفِ أن تُثيرَ ما استقرَّ لقرونٍ في بِنية هذا الوجود الإنساني؛ من قُدرةٍ على الإبداعِ والعقلانيَّة، وإنشاء فكره الخاص، وتأسيس فلسفته، وأن أستعيد بعض مبادئ حضارة وازَنَت بعربيةٍ راقية، وعبقريةٍ واضحة، بين قدرة العقلِ على تجسِيدِ أفكارهِ، ووضعها موضع القَبْضِ، وبين قدرةِ الحسِّ على الارتقاءِ بخيالهِ إلى مداركِ راقيةٍ في الأفكارِ والوَجْدِ، ومراتبٍ عُلا في الإيمان والزهدِ.

حُلمٌ لا أخَالُه يتسمُ بالإحيائية أو التأسِّي، بل بكونه اعترافًا

للذات بقدر ما تتضمنهُ من قيمٍ ومعارفٍ مطمورة فيها، ربما كان استحضارًا لعشق ابن زيدون، لحروف ابن رشد المحروقة، لزهراء الناصر، ولشقوةِ أبي عبد الله.

حُلمُ أراني فيه مثل رؤيَا لا تَحِلُّ إلا في خيالِ صاحبها، أو طائرٍ لا يَحُطُّ إلا في مطارحهِ.

نون

﴿ 1 ﴾

أَنْدَلُوسِيَّا

في مثل الظهيرة، يكون مَقَامُ الشيخ الأنصاري خاليا إلا من خادم المقام، غافيا في ركن رطيب، وإلا من بضع شمعات محطوطة في قاعدة شُبَّاكِه، تُصعِّدُ نورها ونارها إلى النهار الفَرِح بشمسه التي تدفئ فضاء المقام الخالي إلا من الكسوة الخضراء الباهتة، والمزيَّنة بالقصيدة المُحاكَة بخيوط الفضة، وتنعكس على زجاج شجرة النبوة، في بروازها العتيق، في صدر الحائط المواجه للباب، وتُلقي بظلال قضبان الشبَّاك على جسد الخادم، النائم، يحلم بإنسية تؤنسه.

وفي مثل الظهيرة، يكون في سطوحه، جالسا في ظل التكعيبة الصغيرة، فوقها أوراق الياسمينة، تحمل عنه دَفق الحرِّ، فيكون لاحتراقها عطر نشوة خفيفة، تذكِّره بالمساء، وبعُرفِ فرس مجدولة شعراته الصهبة، ملضومة بخرزات، بحرٌ لونها وعميقة الزرقة، وبسَرجِه الموشَّى بتفاصيل حكاية شعبية، وبفارس

مطهم، شاكي المعارف، مزجَّجٌ مقبض سيفه بتواريق أرابيسك، ومكحَّل بقراءات من فضة بيضاء، تنأى بقابضه عن خِزي التجرُّدِ من النصل، وعلى مضاربه، تركت دماء لا قاها علاماتها، ونهايات حلولها.

وفي مثل الوقت، يصخب الشارع بعياله العائدين من مدارسهم وكتاتيبهم، أو مشاويرهم إلى الأسواق القريبة، أو غاراتهم على الحارات المجاورة، ويرجع الرجال من أعمالهم وتصعلكهم، والنسوان بلوازم يوم، ومشاغل حياتهن.

وأمام باب المقام، يمر الجميع، يحيونه بالفاتحة أو بالسلام عليكم، أو بنظرة خاشعة أو متجاهلة.

وأمام البحر، يقف الفرس بفارسه، يداعب بحافريه زَبَد مويجات تلهو، ثم ترجع إلى بحرها مغسولة برائحة صهيله.

وأمام كِنِّه، يقف ذكر الحمام المرقَّش، ينفض عن ريشاته رائحة مكانه، وجواره الفارس، يختال في سطوحه، أمام بحر ينتظره،

وتحت صهد ينهمر إليه، وإلى تراب الشارع الصغير، ورؤوس العيال الحليقة، وأقدامهم الحافية، يزعقون، تتلاشى خيالاته، ويعود للأشياء وضوحها، فيتجه إلى غرفته في زاوية السطوح.

يطير ذكر الحمام، يدوِّمُ، يناوش السرب المحلِّق فوق مطرحه، وتهيج رائحة المُخلَّلِ الحادة، المخلوطة بالتَابِلِ والبُهَار، تصنعه أم الخير في دُجَى دكانها، وتتداخل حمامات السرب في حومانها، حبَّاتٌ بيضاء فائرة، تتحمم بنور نهار صابح، ويرجع الذَّكرُ إلى كِنِّهِ، تتبعه النتاية الذاهلة عن سربها، يحطُّ بها على سور السطوح، فتحطّ، لا يفزعها صوت عصفور الخشب يضربه الصبي إلى أقصى الحارة، أو خبطات طيارة الورق في جدار البيت، تحاول أن تخلِّصَ خيطَها من فخِّه، أو الأشياء من حولها؛ المنضدة الصغيرة المعمولة من خشب صناديق، والكرسي المغزول بالقش الكِتَّاني، يغفو ظلهما على جدار الغرفة، تتردد في أنحائه القريبة من السقف خروم لم يصنعها طائر أو عشَّشَ فيها، فبانت مهجورة ومعتمة.

وعلى المنضدة المائلة قليلا، كان كتاب، وعلى الكرسي الوحيد

يجلس، يدع للوجد سطوة الانفراد إلى فراغات القلب، يمد كفه التائقة إلى ملمس الكفِّ الحبيبة، يقبض الكتاب، يفتحه حيث زهرة لا تُنبِتُ إلا في جبلِها، تحمل أريج أرضها، تفوح بزهوها القديم، ويقرأ :

"وأما العلة التي توقع الحب أبداً في أكثر الأمر على الصورة الحسنة، فالظاهر أن النفس تولع بكل شيء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة، فهي إذا رأت بعضها تثبتت فيه، فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية، وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة، وذلك هو الشهوة؛ وإن للصور لتوصيلاً عجيباً بين أجزاء النفوس النائية"[1]

وتفور المعاني، لتبدأ تملأ الفراغات بين الأشياء، تضيء بعض ظلال الكِنِّ المشغول بذَكرٍ ونِتَايَة يجربان التحليق في الداخل.

وكانت الكلمات تفيض على المنضدة والأشياء بصَبَابةٍ مُعتّقةٍ،

(1) "طوق الحمامة" ابن حزم.

تصعد بلاغتُها رائقةً إلى الخرُومِ المعتمة، تظل معتمةً في دفء، وتَخطُر في الأنحاء مجازاتُ، تمازجُ ملامحَ وجه المهَاجِرةِ، يرسمُها الآن في أوراقه المحفوظة لها، وتذوب في حروف القصيدة الموشُومةِ في قَوسِ باب حجرته، وتجتاز المسافة، إلى المدينة المحفورة في خشب الباب، إليها كانت المهاجرة، وإليها كان الفارس، بألوانه وأوتاره، وسيمياء معارفه بأسرار الزَّهرِ، وعِمارة النورِ والظلِّ، بتراويح صلاة، وشبقٍ بقدر المدائن، وبسيف مُختَبَر، وفرس محنَّى بالملح وذَهبِ النَّار، إليها كان، يتجول في دروبها المبلَّطة، ويَصُولُ في بُحورِ شِعرِها، يمرُّ بشُرَّافَاتِ الأعالي الممزوجة بالسماء، وبأبواب الجوز، وتحت تعاشيق من الملاء والفراغ، ترسم نوافذَ، وأمام عيون صبيةٍ تفوت أبصارها في نور المشربيَّات مثل تواشيح أندلسية، وفي حروف كتاب عن "الأُلفة والأُلَّاف"، وفي صلوات ليلية بين أعمدة بلقاء، تُراوح أقواسُها بين الحمرَة والبياض، وفي رحاب قباب تصعد أهلَّتُها إلى أسرابِ طير صَافَات، تعبر المدائن، وفوق أسطح البيوت، وتعود، لتحُطَّ

في تجاويف أعلى الأبواب، وعلى شبابيك الأصحاب، وفي أكنانها، تنفضُ عن نفسها عناء خوض السُبلِ، إلى الجالس وحده، تأتيه روائح الشوارع، وصخبُ المارين، وخيالاتُ فارس، يدَعُ رسومه على مقعده، ويقوم إلى مدينته، إلى بابه المحطوط بين السطوح المفتوح على ممالك وخلفاء كانوا، وحجرته الصغيرة المملوكة لأسرار ما كان وما سيكون، يرنو إلى قوس الباب، ويرتل:

تناوشني
أطيَافُ الأندَلُسِ
فيَرتَاد ذَاكِرَتي هَوى
يسلُبُ اللبَّ إلى طَوقِ حَمَامةِ
أنزِلُ عَلى ابن حزم نَاوياً الإقَامَةِ
يَأخُذُ بي إلى أنحَاءِ قُرطُبَة
حَيثُ عَاشَ وعَشِقَ
وشقَّ عَليهِ عِشقُهُ
حَتَّى مَاتَ

ويعود إلى أشيائه، وذِكرَى تصعدُ به إلى كَبِد اللحظة، وسماء تتهادى بزرقتها، ومفتاح قديم، وتساؤل: "أي زمن ينسكب الآن؟"، وتساؤل: "كم من الأزمان يحويها الآن؟".

يعود إلى أوراقه، ويعود إلى تاريخ صَبيةٍ، تعدو خلف ظلِّها الآخذ في الذَّوبِ، وشيخ يرتلُّ أوراده اليومية، لأجل أن يرى شمسا أخرى، وطيارة ورق تتخبط بين حيطان البيوت، وكوب ممزوجة قهوته بالنهار الدافئ، يرشفها، ويُمسك بريشته، وينتظر الصِّحابَ، ويُبحر في أنحاء ورقة بيضاء، مشرَّبةٌ بلونٍ له وهج النَّار الفائرة من خشب سُفُنٍ عَدَّت به البحر إلى أندلسه، ينثني إليها، وإليها ينثني، وله تتبدى، فيَشُمُّ لها رائحة الفرس المغسول بماء البحر، وفيها، يرى ملامح السيف المرصَّعِ بغُبارِ خَطوِهِ إليها، فَتلْقاهُ، تتألق في نور الأشعة المحترقة، مرفرفةٍ بغِلالة تَنشَدُّ إلى قوادمِها، تُريقُ له خرائط ترحَالِهِ، وتوحي له: "أن إليَّ"، فيمتطي صهوة الظل المخلوق من وَقِيدِ خشب السفن الراحلة إلى أزمنة البحر، ويَخُبّ إلى موقع هجرتها، يَشمُّ لسفرها أريجَ غَارٍ،

فيُسميها "رَنْد" وترنو إلى نقطة عينه، تلمح ذاتها، فتناديه "نُونْ" وتنأى، وإليها يدندنُ:

يا رَنْدُ أسبابُ الوجودِ عالقةٌ * بوِصَالِ نُون حلولي برائِكِ

إن كان غَارُكِ في الأجيج زاهرا * فأنا له عينُ الحصولِ التَائِقِ

ويَغمس الريشة في بقايا القهوة، يمر بها على شطآن المدائن المرتقبة، تذخرُ بقوارب الفاتحين، تقبضُ قبضاتهم على مقابض سيوفهم، وعلى الظهور تتأرجح كنائنُ سهامهم، يرسمون خطواتهم في الرمل، وفي التاريخِ أماكنَ، لها لوعة النَّصلِ، وروعة القصيدِ، ووَرَعِ الوحي الزاحف إلى الشَّطِّ، يسكن أسماء البلاد، وأجساد محارات، تُغيّبُها حوافر الخيل في قلب الرمال، وتدَّخرُها نوارسُ لها لون السحائب العذراء، تُدَوِّمُ حول أطراف اللهبِ الصاعد في تناغم إلى السماء، تستَدفِئُ بالحَرْقِ.

وفوق الأشرعة المُشَرَّعة للأجيج الذَّاهب إلى مواطن حَوَمَانِ الطَّيرِ، يعبرُ الذَّكرُ الزَّاجل، مرقشا، يحمل حول ساقه أخبار الوصولِ، ومفاتيح قُرطُبة.

﴿ 2 ﴾

وَحْيُ الرَّاء

كان المفتاح لجَدِّهِ، نُحاسيا مُصفراً، تكتنف ضخامته نقراتٌ سُود، وعلى حلقته محفور اسمه "نون"، وضعه في ثقبه، وأغلق سطوحه على سمائه الخاصة، وحمائمه المسافرة، وصُررِ أسراره، وهبط السُّلَّم الخشبي، يتأمل درجاتَه، لرائحته صوت بحر، ولثقَلِه عليها أريج نِزالٍ خَاضَه قبل الآن، على مشارف جبل قَاصٍ، صلَّى في سهله، وفيه رآها، مجبولة من صَخرِه، رُمحية القدِّ، وللَوزِ عينيها عطر مدينة فتحها، فأسماها "رَنْد".

وكان الشارع الصغير، محفوفا بالسُرُجِ المضيئة، تُمَلِّسُ بنورها على قبابِ البلاطات المصفوفة حتى آخر الضوء، يحلِّقُ ومئذنة سامقة، ويسكنُ إلى حافة الأهلَّة في سماوات القباب.

والبيوت عتماتها دفء سَكَنَ في مداخلها، وتحت الحروف البارزة لقصائد منحوتة في أعلى الأبواب المَوَارَبة، تتعلق في

صدورها وجوه أُسْدٍ من معدن صلد، لِبَدُها مصقولة، وتحتها قطع الحديد المحطوطة بيوتاً لدقِّهَا.

وكانت العَشيَّة تحمل ناسها إلى مقاصدهم الليلية، وتعود بَرحلِهم إلى سُكناها، إلى مصابيح الزيت تنتظر في أول البيت، يرتاح نورها إلى شوق القاعِدَة تنتظر الجائي مِن كَدِّ يومِهِ، مسرِّجة سِراجَها لدخوله إلى راحته.

يشيع السكونُ بعدما سَكَّت الدكاكين الباقية ضُلَفَها، ويصير الليلُ والشارعُ مملكةً للمزاليج المعلَّقة في جنبات الأبواب، وللمفاتيح العائدة إلى سيَّالات أصحابها، مطرَّزة في نواحيها أسماؤهم وحروفُهم الأولى، وللعارفة الآيبة من باديتها، تحمل في غَلقِها وَشوَشات الرمل، وخبايا الريح، ومغاليق الأسرار، تحُطُّ مثل وحي في جسد العتمة الصغيرة الصاحية، تستدفئ بشحيح النور، وقوارير قهوة صهباء، مصهللة بفضل الضحكة الغانية لأم الخير، تُشعل بها كلَّ ما سكن بين قدحٍ وقدح.

كان المساء مزاجا من البكاء المنتهي وصهد لقاء الأصحاب،

أنسبُ ما يكون لاحتمال رسالة، وأصعب ما يكون للفرَدَانِيَّة واحتبال وحي، في مثل مساء تدوس فيه الحوافر الصليبية طرقات القدس، في مثل مساء يحلم فيه "الناصر" بالمريَّة، في مثل مساء تدق فيه الأجراس، الممهور عليها أسماء صُنَّاعها، في منارات المآذن، في مثل مساء سيكون ذات مساء.

هكذا كان المساء الذي سامر فيه الأصحاب، حول أقداح القهوة، وقطع المخلل الملحية، مثل محارات عَلَقت بجنبات سُفن حفرها في خشب المنضدة الصغيرة، يلتَمُّون حولها ويتحاكون، ويرنون إلى الداخلةِ، تتدثر بالسواد المشغول بِخَرجِ النَّجَف، وملاليم الذَّهبِ، والتِرتِر الملوَّن، والخيوطِ المغزولة بتموجات شعرها الفاحم، المنسدل في غير عناية، ويحدثون :

ـ "تُرى ما اسمها الليلة؟"

ـ "أزميرالدا".

ـ "عَرِيب".

ـ "كارمن".

ـ "بُثَينَة".

ـ "لُبنَى".

ـ "هي الليلة رَنْد".

قال دون أن يسمعهم، دون أن يروه داخلا خلفها، تحمل نبوءاتها في غَلَقِهَا، المغطى بوشاح غير بال، مشغول الحواشي برسوم ونقوش، وحدها تعرف معانيها، وجميعهم يدركون سحرها. ينادونها، تصير إليهم، تبسطُ أسبابَ وَحيِهَا، ومعارِفِهَا، فيسود صَمت، يتكئ إلى مجالسهم، ويتراكم تحت المنضدة الصغيرة، ويعودُ مثل صدى إلى منطقها، فتُحَدِّثُ:

ـ "أنتَ نُون".

فيعود بذاكرته إلى المساءات الماضية، حين رآها، تسبقه عبر طرقات لها رائحة الآس، ونور نهار مشغول باليد، يناديها، لا تَردُّ، وتمضي في طريقها، تلتف بإزار له لون النبيذ المطعون بالشمس، تدور ودوران الدروب، تُلمح له بطَرْفِ وِشَاحِها، المرفِرف خلفها حيث تصير، يتبعُ خطوها، في نعلها الجلدي

المرسوم بصباغ الحِنَّاءِ، وعلى سَمعِها يتلو:

أأسلبُ ، من وصالِكِ ، ما كسيتُ

وَأُعزَلُ ، عَنْ رِضَاكِ ، وَقد وَليتُ

وكيفَ ، وفي سبيلِ هَواكِ طوعاً

لَقــيتُ مِـنَ المَــكَارِهِ مَا لَقِيتُ

فَدَيتُـكِ ليس لي قلــبٌ فأسْـلُو

ولا نفْــسٌ فـآنــفُ إن جُـفِيتُ

فـإن يكُــنِ الهــوَى داءً ممــيتاً

لمَـنْ يَهــوَى فـإني مُـستَــمِيتُ[2]

كانت تُحوِّمُ خفيفة، تسابق النَّهار، وتحُطُّ مثل لمعة في عيون العيال يلعبون بِنَحْلاتِ الخشب، وطائرات ورق الكُرَّاسات، يدوسون بحفائهم في مسارات مَشيِهَا، وتروحُ تُمَلَّسُ على الأجساد المطروحة جنب الحيطان الباردة، يتكلفتون بجلابيبهم البسيطة، ويحلمون بالأرصفة.

(2) قصيدة للشاعر القرطبي ابن زيدون.

ويحلُّ قَمرٌ، فتكون إلى وَسَعَايَةِ الليل، تمرُّ بكفِّها على كفِّ كنَّاس يلمُّ بقايا اليوم، مِزَق ورق، بقايا الخطوات، ووهلات الهوى والتعب، وتغادر إلى نور نارٍ بعيدة.

يَشُوفُها تهبط جَنبَ امرأة تقعد أمام رَكيَةِ نار، تكسر عيدان الجَريد الناشفة، تَحُطُّها في الجمر، وتكلم نفسها عن سنين عمرها التي مرَّت من غير وَلَد، وعن رجُلِهَا التي كانت تنتظره عند شُبَّاكها، لأجل أن تسعد برؤياه وهو يهِلُّ عليها من أول الزقاق، وعن قعدتِها في الشوارع سنين، تجمعُ كَسْرات الخشب والخبز، لأجل الدفء واللقمة، وعن حكاياتها لأُناس لا تراهم عن الذي كان وما صار، والذي صار وما كان.

وكان يبُصُّ عليها من بعيد ولا يخطو إليها.

ربما استطاع أن يغادر نومه، أن يستسلم للرؤيا ويُعاني البُعدَ، أن يبقى في حال الحُلم، أو يصحو، ولكن ما كان له أن يبدِّلَ مسارات المنام، أو أن يغيِّر أسباب الحلم.

وكان يدرك أن المستحيل قابل للنفاذ؛ شرط أن يكون القُربانُ مناسبا، فيعود إلى العارفة بأحواله، تجوسُ بِبَنانِها في رَملِ صحرائها المفرُود على منديلها، في أطرافه تعاويذ مرسومة بِصِباغ لا يبلى، ترمزُ إلى ملامح خروج، وأشباه للاستحالة، تحوي دوائر مقسومة، وتفاصيل وجوه، ونقطة نور مثل نجمة في فضاء "ن".

يسألها: "أتعرفين؟"

ـ "مثلما يعرف الحلم قلب صاحبه". تقول.

وتلمع عيناها، وتطرق، فتفرح روحه، ويرنو إلى صبابة عشقه تسري في أنحائها.



﴿ 3 ﴾

لَيلَةُ الوَحْدَة

وما كان لتخيال ابن حزم في عزِّ الليل لِيَكشفَ لَهُ سرَّ حِجابِ البدوية.

وكان الليل حالكا.

والمُلكُ لَكْ لَكْ لَكْ يا صاحب المُلك.

وكان كروان، يؤنس ليله بتسابيح، ترفُّ مثل ضوء ينبعث حادا، ثم لا يعود سوى ظل، وتعتم الظلمة، ويُشرق قلب الوَاجِدِ الجَائلِ وحدَه في عِزِّ الليل.

كان يحمل ريشتَه، وجِرابَ أسراره، وأوراقا صنعها لمثل المساء.

يجولُ في أحوال الليل، في الأزقَّة والحارات، يقتفي روحَ المهَاجِرة، الساكنة في القلوب، يلمُّ حكاياتها، وأرواحَ صَرعَاهَا، وأشجانَ الأصحاب.

يمر في ليل الشارع الصغير، تُتابعه الفضاءاتُ المقفُول عليها، وأحلامُ العيال، والأقفالُ المبسوطة برسومها، والأبوابُ، ورؤى من كانوا في نومهم، ولمَّا، وسرابات من كانوا في النهار، ولمْ.

وفي صدر الليل، تنسدلُ طعنة ضوء، تنفردُ مثل غِلالَة مشدودة بين الوَربَة الضيقة لباب أم الخير والحائط المقابل للباب، مثل ستارٍ شفيف من حليب الضوء، مثل ملعب لغبار الليل اللاهي في ملكوته، دليلا إلى حيث تصدر أصوات شهية الحزن، لاهية، في مقامات وجد، تحكيها العارفة بالدواخل، تترى من بين ضلفتي الباب، إلى ملكوت النور، فيخُطُّها ابن حزم، دون سهو، في أوراقه.

وإلى صندوق مَغنَاه يميل، وبالحركة يُفيضُه، تتألق حوافه الدائرة تحت بوق النحاس، يرنِّم على الليل وشاشة الضوء أمامه بصوتها المرسوم على غِلالة النور المفرودة للشيخ الوحيد.

وكانت في خِمارِها، تكشف عن نرجسِ عينيها، وتشدو، وأمامها نُون، يُريق من الوَلَهِ كؤوسا، ينهلُهَا، وينسَى السُّمَّاعُ

سَمتَ الصوتِ، إلا صوتا، ويلوذون بأسباب السُّكُون، فلا يكون سوى أرواح ليس لها هسيس، وتصير لها ولصوتها كل فضاءات السكون القادرة على بذل وجودها، لأجل أن تحتشد بترنيمها، فتُوشِّحُ:

فِـي ليـالٍ كَـتَمَتْ سِـرَّ الهـوَى

بـالدُّجى لـولا شُـموس الغُـرَر

مَـالَ نجـمُ الكَـأسِ فيهَـا وهَـوَى

مُسـتقيمَ السَّـيرِ سَـعْدَ الأَثَـرِ

وطَـرٌ مـا فيـه مِـن عَيـبٍ سِـوى

أَنَّـه مـرّ كـلمْح البصَـرِ

حـين لـذّ الأُنس شـيئًا أَو كمـا

هجـم الصّبـحُ هجـومَ الحـرَسِ

غَـارَت الشـهْبُ بِنَـا أَو ربّمـا

أَثّـرت فينـا عُيـونُ النَّرجِـسِ[3]

---

(3) موشح للشاعر الأندلسي لسان الدين الخطيب.

فيقبض ابن حزم كتابَه بيُمناه، ويقوم إليها، يخطو إلى حديقة إنشادِهَا، وفي القلب كلام، يقترب منها، فتنأى، عارفةً بالهوى الصادر عنه.

ينطق: "ما للقلبِ من طَوقٍ على الهجر"، ويدنو.

تنطق: "سيدي أنتَ، ومثل وَرقَاء تحَامَت، أكون"، وتنأى.

ينطق: "وما للوصل! هل حال بين الحمام وحَومِه؟" ويهفو.

تنطق: "وما للوصل بين حرفٍ وصوتٍ!"

فيخُطُّ في أول كتابه:

"إلى الورقاءِ، ما كان من فِعلِ حَومِها في قلبي"

ويُحدِّث: "هاكِ حَرفِي".

فتجيء بصندوق إنشادها، وتَخطُّ فيه ما كان من روحها له، وتُحدِّثُ: "هاكَ صوتي".

وتدنو بلِحَاظِها إليه، وتكون إليه بصوتها، ورفَّات أناملها،

ينأى عن المحيطين به إليها، وفي فؤادهِ يتردد عشقٌ منفرد.

وتكون صَلصَلةٌ بعيدة، وخطواتُ جُند، وصيحات وجع وموت، وبُستان متروس بالبربر، وحبيبة غاب صوتُها، وعاشق في وحدته القرطبية مسجوناً، يسوِّدُ أوراق وَجدِه، ويحلمُ بالبعيدة، أين؟

ترنُّ ضحكةٌ صاحية لأم الخير، تُعيد الشيخ القرطبي إلى حيث هو، فيقعد، يُكمل رؤياه لما يكون، وفي القلب وجع، ينظر إلى حجري عينيها الرطبتين بالدمع، تميل بوجهها عنه، تمد يدها بقنديل من زجاج شاطبة، يأخذه، وفي زجاجه كانت عيناه تلمعان برطابة مالحة، لا تلمحها.

وتعود إلى مكانها خلف الباب المُوَارَب، ومعها ينسابُ الضوءُ إلى الداخل، ولا يبقى منه غير نسيج شفيف أمام القاعد، يقرأُ تاريخاً في زجاج القنديل، ويرقب، على شاشة النور، الداخلةَ إلى صَهلَلَتِها، تُدارِي شجَنا قديما، وذاكرةً ترتسمُ حبيبا كَان، ورايات كان يصنعُها، يُطيِّرُها فوق قصور الإمارة والخلافة،

ويعلِّقُها على أعواد رِماح، دَانَت لها بلدان صِلاب، وغَرسَها في جَنبات الطرقات أريج للمواكب.

حبيباً كان، يراه ابن حزم مشبوحا، على صاريه كالراية، له قدما مهاجر، وعينا ثائر عاشق.

تعلَّق مثل راية للأرض المتروكة، وللبحر يحمل ما تَلفُظُه، وللباقين كالخبايا.

معلَّقٌ مثل راية، في حِمَى "باب الشريعة"، وتحته بقايا خيل إيزابيلا، وريحُ فرناندو المعطَّر.

تعلَّق مثل راية، يتكئ ظلُّها على المارين به، يتخَفُّون، وينثرون من حوله حبَّات قمح وأرز وقطعَ خبز، لتهبط إليه الطير، تؤنس موته، ولترطِّبَ له برفرفاتها.

يمر به شيخ، يُخرجُ من جرابه قارورة من ماء نهر غرناطة، يضعها تحت قدمي المشبوح، علَّها تُروي روحَه، ويمضي إلى منفاه، وفي ظلِّه المفرود على أرضه، يغرس فارس عابرٌ سيفه،

ويصلي، فلا يكون إلا نورا، ويمضي مجردا إلى سفائن جاءت للرحيل.

وفي سَكرَة موته، ينظر المشبُوحُ إلى المنفيين، وإلى "الحمراء" في ربوته، وإلى راياته التي كمدت ألوانها، وتهدلت حبالُها، وتمزقت نسائجها، فيذرف دمعة سخينة، تنسَلُّ ورطابتها بعضُ روحه، ترفرف، وتراوح بين الهجرة والحلول، وتظلُّ.

وتمسح أم الخير نبيذ عينيها بكفِّها، وتنسل إلى حجرتها الجانبية الوحيدة، المشغول بابُها بحشوات ذات حفور، تصوِّرُ طيورا، وتواريق نبات، مطعَّمة بفضة نقية وريح وَردٍ، تضع كفها حيث يحطُّ طائر، ينفتح الباب، فلا يكون صوت، وتُغلق على نفسها، تطوف بالملاء المكدَّس برايات تحمل ألوانا كامدة، وآثار طَعنٍ واحتراق، تُمَلِّسُ عليها، وتمر بكفها في حنين صلاة فوق ألوان، وخيوط، وقطع نسيج من تصانيف المريَّة، وغرناطة، ومالقه، وإشبيلية، كان يجلبُها لصنَاعَتِه، وتجوس في أوراق قديمة، عليها رسوم أُسدٍ، وخيول، وسيوف مشرَّعة، كان يَسِمُ

بها راياته، وتجلس إلى كِليم معلَّق في زاوية المكان، وفي نسائل صوفه تتعلق أحرُفٌ صاغها من وشيج الحرير والذهب، تقرؤها، وتعود إلى ذاكرة سنوات، عبر ليال بَهيةٌ أقمارها، تؤنسه، وفي نورها ينسجُ على الكِليم، خبرَ عشقِهما.

تُرَنِّمُ ببعض كلامه إليها: "لحضرة الكِليم سرٌّ لا يبين لسِوَاكِ، آيتهُ حين يكون القمرُ في مثل بهائكِ، أن نتراءى".

تصير إلى صندوق غيرَ بعيد، تدفع القاربَ المنحوتَ فيه جهة الربوة الحمراء، فيتجلَّى لها، جسدٌ خالصٌ، حَزُّ الحِبالِ ما زال موشوما في معصميه وساقيه، لعينيه البريق ذاته، وبقايا أصباغ عالقة بأصابعه، وبعض روح فيه ساجية، تُقَبِّلُه، وتغلق عليه.

تعود إلى الباب، تقبضُ أُكرَتَهُ، تتحسَسُ حرفا مطبوعا في قلبها، تفتحُ، تخرجُ، تُغلقُ، تمرُّ بالعارفة بالأحوال متكئة إلى وسادة منزوية، وتمرُّ بنُون يحفر في خشب المنضدة سيفا غرسَهُ في ظلِّ جسد مشبوح ينفرد على أرض بعيدة، وتذهبُ إلى القاعد وحده، تفتح إليه بابَها، فيغمرُ الضوءُ الشارعَ، وهي في قلب

الباب، ظلٌّ تام النقاء.

تحدِّثُهُ: "أذكر يومها أنك أرقت قارورة مائِكَ تحت قدميه" فلا يَرُد، وينظر إلى الزجاجة بين يديه.

فتردف، وهي تشير إلى قلبه: "كان يُشبِهُكَ".

وكان كروان

والمُلكُ لَكْ لَكْ لَكْ يا صاحبَ المُلك.

وكان قمرٌ في مثل بهَائِهَا.

وكانت إلى دُكَّانها، تدخل في سمتِ الموصولة توا، وكان إلى جِرابِه، يُخرج قدحا من زجاج أزرقٍ مُمَوَّه بالمِينَا، وقطعةً من نسيج المَريَّة، مرسوم فيها وجهُهَا، وتحت الوجه، مخطوط:

ملامات المحبة للمعنَّى لـذةٌ ❁ وإلا بالعـناءِ تُقـدَّرُ الآياتُ

آثرتُ صَـونَ هـواكِ جمــرة ❁ وفوق هواي حلَّقت راياتُ

بروحِهِ يقرأ الترنيمةَ، وبعينيه يرحلُ في النور المفرود أمامه.



﴿ 4 ﴾

فَارِسَةُ المُتَوَحِّد

الفرسُ في ظلِّهِ يتأوهُ

مثل رُمحٍ يخترقُ بدنا

لا يعرفهُ بَعد

وفي الأنحاء

تتناثر جيرونيكا

والعيون المفتوحة

على الموت

وأجسادٌ لم تبرح

تصرخُ ببعض روحٍ

وببعض موت

وأكفٌ تمتد

إلى نهاية الأذرعِ

تتعلق بالأعالي

وببقايا نور

يصبغ وجع المذهولة

عن موتها

بوليدها

وما كانت اللمبة الوحيدة في سقف اللوحة بقادرة على أن تُخفي ما بقي من قبضة حيَّة، أو شذرة النصل المكسور في الكفِّ الصُّلبة، أو وردةً لها لون البدن، أو ثديا يمتلئ بحليب الضوء.

وفي بهاء يحتمي الثور المبتور بأنين امرأة، تتشكل مثل طائر، يشرع في التحليق بفرخه المغتال إلى سمائه، ولا ...

وفي وجل، يدور نون بعينيه في أنحاء اللوحة، وفي الأنحاء تنساب ترنيمة موتسارت الجنائزية، وفي المكان يحل صفاء الموت.

وفي الخارج، تتواتر الخطوات إلى الباب الوحيد بين السماء وبين الغرفة المبتهجة الليلة بالموت المتاح.

يسمع نون خبطات خافتة، يفكرُ إن كان موتسارت قد أحال

ترنيمته الجنائزية الأخيرة إلى احتضار حي.

تتوالى الخبطات سريعة، في رقة المشغوف باجتياز رسوم المدينة المحطوطة في جسد الباب، إلى شاغل الفراغ المتواري، فيجدها في لهفتها، وتجده في ذهوله ووحدته، وتدخل، وليس سوى مصباح وحيد، وذاكرة تندَس في القلب، فلا يكون كلام.

تُسائلُه: "سمَّيتَني باسم مدينتِكَ"، وتتهيأ بشَدوِها.

تُساءلُه: "أهي الحبيبة؟" وتومئ إلى شريط حرير معلَّقٌ في غمده.

ينطق: "أنت العارفة بالدواخل، أنبئيني" ويراوح بين ظل الفرس ونور حروف الحبيبة، في جسد الحرير المدلَّى من غمده.

ويردف: "وهل غادرني تاريخُ بحر عبَرته، أو حبيبة عشِقتُها، أو صانع رايات مشبوح، يرمق في احتضاره راياته المتهدلة تحت صواريها".

ويسائل: "وهل جُبتِ بين الطوائف في ممالكها، أو تنفستِ

ريحَ المعارفِ المحروقة، أو أُسِرَت حبيبَتُكِ".

فتشرعُ في دندنة خافتة:

جيرونيكا

يا تِيه الموت عن مواقيته

جابَكِ الحرَّاسُ في زمنٍ

فما عُدتِ سوى زمن

وفي التاريخ عاد مشهدُكِ

يَسِمُ الأرحامَ بالوجع

ويصلُ الليلَ بالليلِ

ويكلل المحبوبَ بالأسرِ

فلا نوم

ولا لوم

سوى نصل

يرنِّمُ في الساحات بالعشقِ

ويحمل في مقابضهِ

نسيجا غادر الأسرَ

ووحيا يُنبي بالوَصلِ

وبصوتها، تؤرخ العارفة لعُمرِ الحبيب.

ورنيم الصوت يُشجي، والنطق عاص.

ويسود حزن له سطوة النار، وفي بَراحِهِ النهاري، يطوف نون في أزمان غُرفته، وفي ليل الحبيبة.

وكانت في بُعدِها، أسيرة في ملكوت من حرير، والليل سادر، وصحراء ممزوجة بالهدوء، وريح، تمرُّ على ملامحها الغُلامية، تلهو بشعراتها القصيرة، وبعُرفِ الفرس المتأهب لها، يرنو إلى أفق مشيئتها، فتمتطي، تقبض بأصابعها الدقيقة على اللجام اللدن، تشده في رفق، وتضغط بساقيها على بدن الفرس، فيتقدم، رائق الخطو، وَلِعٌ بفارسته، يلج الليلَ المفرود لها، يَخُبُّ خَبَبَ العاشق الهائم في صحرائه، تُطعمُه بضَغَطَات تذودُ بها عن ذاتِها الشَّغُوفَة بالحبيب، فيبدأ الفرس يعدو، تنتبه ريحُ الليل، تلقَاهَا، تدفعُ عنها ثِقَل الوجعِ الكامِن، تحمل عنها خُصلات شَعرِها، وأطرافَ

الثوب الممْسُوس بحكايات الفارس، وتجوز بها وبفرسها البيداءَ، وبرغبتها في الخروج من حيِّز الزمن المتاح لوجودها.

ينطلق الفرس عابرا اللحظات المهملة، وتواريخَ ما عادت تُجدي، وتصير الرَّملاتُ دربا، وحباتُ الصَّخر دليلا إلى حيث تُهوي الفارسةُ بفَرَسِهَا، تفور الريح في صلابةٍ ليِّنة، تُطلق شعرات العُرفِ والذيلِ وروحَ الرَّاكبة إلى عنان سماء غير التي غادرت، تَهصُر بسَاقَيهَا بدنَ الفَرسِ المدوِّي في ليل وحدتها، فلا يملك لها عَنَتا، ويسري مثل شِهاب، يشرخُ الزمن المحيط، فلا يحسُّ السادرة في غي امتطائها، تملك الوجد، وولعَ الاختفاء في اللحظات المارقة من حولها، تفوت ببُراقِها في مجازات الليل والريح، والمفازة، ووجع الشوق، ولَهف لقاء حبيب ينتظر، تصير إليه، طائراً، يحُلُّ في مكانه، وحرفا يَقرُّ في قلبه.

﴿ 5 ﴾

زَرْقَاءُ المَرَايَا

 في تلك الليلة، رأت، ولم تحكِ.

في الليلة التالية، آثرت السُّهدَ.

وبعد ليالٍ عديدة، دَانَ وهَنُهَا، ولم تعد قادرة على أن تواصل القبض على الحُلمِ، حلمٌ رأته تلك الليلة.

ولم تحكِ:

تحت سماء زرقاء، يُهرع الحرَاس إلى البوابة المترسة بالسور الحجري، يقترب صوت نفير زاه، فتعدو هي إلى أجمة قريبة لتختبئ في كثافتها، يُدير الحرَّاس دولاب الجسر، يهبط بطيئا، كإيقاع حبات ساعة رملية، يمتد بين ملكوته الذي يجري بحسب اشتهاءات خليفة صبي، وبين كونٍ من ولاة وأمراء، يتنازعون السماء المهدَرة تحت أقدامهم.

على أخشاب الجسر المعمول من أبدان أشجار حِيكَت في ظلها غزوات، كان فيضٌ من دبَّات حواف خيل تترى،

وأصوات أبواق صقيلة، تنتصب في وجه اليوم الراجف بفعل الأحداث المنهمرة، هِجائيِّةٌ للحُلم، مثل زُرقة ساجية تنوش سلاما ساكنا، كحِرابٍ مُحاصَرة تلوذ بشرفها إلى مَقاتِل أجساد منثورة، فيسقط سكون الجسر إلى الماء المعتم، غائصا دون جلبة إلى فراغه الجديد.

ويزدحم الجسر بفرسان وأفراس، وطبول افتخار وصبابات الأمير المتأنق، يعتلي فرسَته المكحولة، المُطهَّمة بزُخرُفٍ له سمت الدَّمِ والشمس الغاربة وزرقة السماء، يسعى في خُيَلاء ذَكَرٍ إلى طلب أميرة، يُمنِّي القلب بالأفراح المحتملة، ويُمنِّي النَّفسَ باتساع إمارته، يشحَذُ عَرُوضَ شِعرِه، ويداعب مقبض سيفه، ويراجع معارفه بالكون والأشياء وتفانين الإغواء، يذكر بشارة عرَّافِهِ الأعمى، ويبحث في عينيه عن نظرة سابية تُرجِّحُه.

وخلف الأمير وليّ، وخلف الوليّ أمير، فخليفة يتبعه طائفي، فمُرابط، ثم موحِّد، فسلطان من سلالة الدَّمِ، اُغتيل ذات مرة، فعقد العزم على أن يحوز السلطنة، ولا يُبقى في أرض غرناطة

سواه ، وأن يدخل بالأميرة في ظل أجساد مغتاليه، على مخمل سريره الأزرق، فيما تتشرب هدباته قطرات دمهم.

فتفزع من بين حشايا الحرير، تقوم إلى شُبَّاكها، تحيطها وصيفاتُها، وفي سمعها يَهمِي صوتٌ مُبهم المصدر، لقَينَةٍ تشدو:

لو أن الزُرقة مجرد حُلم

ماذا سيكون من أمر البراءة؟

ماذا سيكون من أمر القلب

لو أجدبت ينابيع الحب؟

ولو أن الموت هو موت

ماذا سيكون من أمر الشعراء

ومن أمر الأشياء النائمة

التي لم يعد يتذكرها احد؟

آه يا شمس الآمال

أيتها المياه الرقراقة

والقمر الجديد

يا أفئدة الأطفال

يا أرواح الأحجار الصُلبة

اليوم أشعر في فؤادي

باختلاجات غامضة للنجوم

وكل الورود

بيضاء كأحزاني.(4)

ـ "هل يُحيل الفزعُ زرقةَ الحُلم إلى حزن أبيض؟"

تتساءل الأميرة وهي ترفرفُ عن مجلسها ترومُ مصدر الصوتُ، تَخفُّ إلى فضاءات الأبهَاء، تحطُّ في بهو العذارى، تدور في الأروقة، تحتملُ ظلالَ أعمدتها الرخامية على جسدها المنساب إلى بَهوٍ يَذخَر برائحة القَصيدِ والشَّجن، وصدى ترديد لَمَّا يَزل ينتفض بشهوة الحزن لترانيم حبيب، وأطياف تحكيها الشمس على نافذة المكان، إلى اللائذة بالخفاء، ووجع مطمور، وأغنية خريفية.

---

(4) قصيدة للشاعر الإسباني لوركا، من ترجمة المؤلف عن الإسبانية.

تهبط إليها رَندُ، كَمَن إلى كِنِّهَا، تجلس أمامها في سكون، يرتاح إلى سكونها الفرس المشغول في زجاج النافذة، ويثير في نُطق الأميرةِ السؤال:

ـ "أي روعة لهذا الشجن الأندلسي، لمن هو؟"

تومئ رَندُ بأهدابها جهة النافذة، وتجيب:

ـ "لحبيب من مملكة غرناطة، كان يزرع الحقول والفصول بأشجار الزيتون والقصائد".

ـ "أي اسم كان له؟"

ـ "اسم يُضيء بترداده الليلُ ، لمسامع حروفه القدرة على أن تُخثِّر الدم النازف من جسد الفارس المطعون، أن تُحيل زنزانات المقبوضين من العُشَّاق إلى لفحة عطر في حرير امرأة تسكن تَخيَالَهم، أما له، فلم يكن سوى "لوركا". لوركا الذي أجاد الحبَّ بمثل ما برع في الموت وصوغ القصائد".

ـ **"لو أن الموت هو موت**

ماذا سيصير من أمر الشعراء

وما الذي صار إليه؟"

ـ "حتى أنه لم يدع لنا جسدا نلمسه في ليالينا الموحشة، وكأنه روح خالصة، أو ضوء نجم فَنَى".

ـ "وعلام تضعين زهورك في ذكراه؟"

ـ "على صدري، قصائدهِ، رسومهِ، قلوبِ الأطفالِ، صخورٍ قذف بها، دروبٍ مرَّ بها، رصاصةِ مرَّت به، أو حتى في حذائه".

وتقوم الأميرة إلى نافذتها، تتبعها رَندُ، تمران ببصرهما عبر زهرة برتقالية نابتة في زجاج النافذة، وترنِّمُ رَندُ:

ـ "في ذلك الحقل البعيد، هناك، يقف رجل نحيل مثل وردة، يبذر الحَبَّ، في شجن أغنية عميقة، إنه هو، وتلك الساعية خلفه مثل رائحته، ماريانا؛ نحرُثُ ونبذرُ ونروي حتى ترحل شمس اليوم، وحول نار المساء نجلسُ، يتراقصُ ظِلَّانا خلفنا، حتى يصيرا ظلا واحدا، ونَغَمَ قصيدةٍ جديدة يُسمعني إياها لننام،

وفي الحُلمِ، يبزغُ الحَبُّ مثل نور نهار جديد، وتسودُ الخُضرةُ مساحة البَصرِ، ونصحو على أرض شاحبة مجدبة، وفضاء من صُفرة جافة، ولا صوت، لرقرقة ماء، لخفقات أجنحة طائر، ليس سوى دبيب رمل يصعد في العروق المهشَّمة، لشجيرات مستغرقة في موتها.

كانت الأرض جميعها مثل كلمة مُبهَمة، يتوقف وجُودُكِ على فهمها ، معلقة أمام بصركِ، لا تدركين لها معنى، سنوات امتلأت بالصلابة والفناء، حتى كنَّا نأكل قصائدَنا، والأرغفةَ اليابسةَ في حكاياتِنا القديمة، ولا جدوى، ولا صوت، غير أنَّاتٍ مؤرَّقة جائعة، تتضور برنَّات أنين لا يكَلّ، وألمُ ينفضونه، عساه يسقط مثل زغب اللقاح في أرض نديَّة ترويه، تردده صلصلة أجراس، تتساقط رنّاتُها على أوجاعنا، وعلى خوذات سادة يتصنعون السؤدُدَ، تهيِّجُ الأفراسَ الضامرة، وما بقي من فرسان، وأتباعٍ رَهَقُوا من إطعام الموتى، وحَملِ صُلبانهم الخشبية، فخَاطُوها على صدورهم، وفي دروعهم، وحملوا على مَشرِقِ الدنيا؛ قلبها

المقدَّس.

سادةٌ امتطوا شهوات جوعِهم وآلامِهم الربَّانية، تتبعهم أسراب من فقراء انتعلوا حفاءهم، وما بقي من رغبة الأرض على حملهم، وقبضوا على سيوف ورِماح ودُّوا لو طَعِموهَا، ومعهم كانت، ماريانا؛ أحلمُ بأرض الخلاص، وأحمل في رَحِمي بعضا من روح لوركا، وخطوطا من أغانيه، ونظرة أخيرة حطَّها في عيني".

وبعينيها، تمر رَندُ، عبر عينين لهما لون سماء شتوية لفارس يسكن في زجاج النافذة، إلى فضاء يصل إلى حيث يحلّ نون، في حجرته القريبة من مدارات الطير والنجوم، تراهُ، يخطُّ بريشتها خطابَه إليها، وتشمُّ للمكان رائحة نعناع غمسه في شَايِه الدافئ، يرشفه ويطوف بين أشيائها؛ سيفها المعلَّق في جدار الجير، شريط الحرير، وسهم منزوع من دم قديم، وخطوط، ونهاية قصيدة لشاعر من خريف غرناطة، حفرها بمسمار في جير الحائط ..

اليوم أشعر في فؤادي

باختلاجات غامضة للنجوم

وكل الورود

بيضاء كأحزاني

وبمِثل الإيقاع يرقب الحمامات السابحة في فضاء نافذته، تحوِّمُ مثل وردات بيضاء، مثل حُزن يتقاطر من زمان بعيد، مثل أرواح تنسرب من جِراحِ مدينة مُحَاصَرة، أو حبَّات نار شهق بها منجنيق.

ويكون إلى مدينة معلقة في طرف نافذته، وشارع صغير يستقبل الغروب بظلال يخلُقُها اللهب الكامن في رَحِم اللمبات الرقيقة، ونور شمعات تتأرجح نارها على شُبَّاك المَقَام، تُنير للشيخ الجالس أمام أوراقه، يدوِّن تاريخَ بيت المَقدِس، ويحسب الشهداء، ويَنظِمُ تواريخ الرَّايات والأسماء، ويرنو إلى سَلخَة النور الخارجة من الباب الموَارَب لدكان أم الخير، الجائلة في حجرة أسرارها، تُملِّس على صندوق يؤوي حبيبا، وأسفارا، ورسما لقلعة مأسورة، تماثيلَ أُسدٍ، بهو عَذَارى، عقودا مقرنصة

أرحامُها، ومحرابا، وأميرة خلف نافذة ملونة بأطياف شمس، تصعد إليها أم الخير، يحملها شدو ينفطر حزنا، وألم منظوم بلغة لا تعرفها، فتكون بين يدي الأميرة، وقبلها سؤالها:

ـ "أميرتي، ترنيم القَينَةِ يشرح حالَك، وجمرة هواكِ تلفحُني".

ـ "إن لها صوتاً تبثه أحزانها، أما لي فليس سوى الموت، أو وهم الحلم".

ـ "حاشا سيدتي".

ـ "سأدع لروحي أن تخلصَ من الجسد المأسور بالحدائق، وأرحل".

ـ "لكن أميرتي، الموتُ حالةٌ في لحظة، لا ندري ما يكون حالُنا بعدها، ربما كان للروح أشقَى"

ـ"إذن، سأدع لهم مادة وجودي، وأصعد في مقامات الشوق إلى منتهى الغيب، وأمتطي الحُلمَ".

ـ "ولكن الحُلمَ حُلمُ، واليقظة لا ريب حاصلة بعده، الأمر

مرهون بزمن، ولكل زمن نهاية، وبإشراق صباحك التالي ستعودين، بعدما ذُقتِ متعة التحويم في رؤيا الأبد، وتمتعت بلذة الترحال في الكون، فأي ألم سيكون ما يملأ صباحَكِ، وأي عذاب تشعرين، وكيف لتلك الروح التي لامست الأبدَ وأسبابَ الوجود، وعاينت الكونَ في تجلي ديمُومَتهِ، أن تستقر في جسد أميرتي بعدما تؤوب من رؤياها؟"

ـ "ولكن عذابات الفقد أخفُّ من عذابات الحرمان مع الشوق".

ـ "حقا أميرتي، لكن الحُلمَ أقدرُ على أن يضنيك بأكثر من أن يُحوِّلَ لون عذابك، أن يُنهِكَ وجودَكِ، بين النوم واليقظة، بأعظم من أن يُتيح لكِ مستقرا".

ـ "لقد تعلمت الحكمة، والنِّزال، وقَرضَ الشِّعرِ، فلم أجد لي مهربا سوى الحُلمِ".

ـ "بل هناك سواه، إن للعقل حدودا، وللقلب طوقا، والجمال

هائم بين ذوائق البشر، وبين الذات والوجود ثمَّ أبدٌ من المعرفة، فيضٌ لا نقدر على الإحاطة به، هكذا رَهِقَ قلبُ مولاتي عند درجة من درجات هذا الزمن، الذي لا زمن له، أو ربما هَبطَت بينما كان لها أن تصعدَ، أو سَارَت فيما عليها أن تُحلِّقَ".

ـ "ملأتِ القلبَ رغبة ورهبة، أسرعي ببيانك وانبئيني بالسبيل، أيتها المعرفة المتجسدة في صورة امرأة، أظنك من كانت تحوز يوما حكمة دلفِي، وانحنى أمامها سقراط الشاب يسألها سرَّ فلسفته".

ـ "ما بين قصركِ ومَنزِلِهِ مسافة ضئيلة بالمكان، سحيقة بالزمن، تحددُها علامات منظومة في أشجار، وأودية، وتواريخ، وبحيرات، وأحداثٌ صَاغَها أمراءٌ وولاةٌ وخلفاءُ، اجتيازها بالفهم يُنجزُ الوصولَ، اجتيازها بالبصر يُسلِمُكِ إلى الظَّاهرِ لا سواه".

ـ "ها أنتِ ترسمين أمام خيالي متاهةً، كمثل مرايا تأخذ بي إلى مرايا، وليس غير الوهم".

ـ "هذا ما ستصيرين إليه إن بقيتِ في حسِّكِ، أو سرتِ حسب ما تشعرين به من لذة".

ـ "عشقي معرفةٌ، ولذَّتي فَهمٌ، وهواي بالعالم حرفٌ وخطّ، والحرف عِلم، أأقدر بهذا أن أجتاز السورَ الحائل مثل زمن لا يُستعاد، والجسرَ المنبسطَ مثل فُلك ولا بحر؟"

ـ "تقدرين، شرط أن تجتازي متاهتكِ إليه".



﴿ 6 ﴾

خُلوَةُ التَّجرُبَة

يتضوع في فَلَكِ المدائن طِيبُ رَند

يقبسُ نون من روحه نفحةٌ

يصوغ من أسبابه سراجا

يعلِّقُه مثل ثمرة في حِنيَة مشكاة تنبت في مكانه، فيُشرق محرابُها بنفحات نور، تُحيي رميمَ قصيدة غابت في جدار الجير، وترفع رماد الصدأ عن طُغراء سيف تغمَّد دروعا وصُلبانا فأضناها، وتدفع بالغبار عن صدفات عاج، وتواريق نُحاس، ورصائعٍ من بهاء النجم، تحلَّى بها صندوقٌ مصفَّحُ الجنبَات برموز ورسوم، مُترفُ الظاهر، زاهدُ القلب إلا عن حروف الحبيبة.

يحمله نُون، يمرُّ ببنانِه المتيَّم على رموز الجوانب، ويترنمُ بأسماء الرسوم، ينفتح له الصندوق، يحطُّ بكفه على لفائفٍ مصنوعة من ورق شَاطِبَة، محكومة الخصرِ بشرائطٍ من حرير المريَّة، ذاخرة المتن بآيات هُيام رَند، تصطلي حواشيها بتواريخ

من أحوال متاهتها، ويروجُ في أنحائها بَخور عطر ينفردُ مثل زغب نور رهيف، يخفق خفقان التائه بين مراتب العشق، ويتسعُ وئيدا في لوعة، حتى يحوي أرواح الأشياء المنثورة، وأبدان الحمام الآيب من حُلمه، وشوقَ العاشق للسالكة إلى عِرفانِها، تطلب المعشوقَ معرفةً، وتستضيءُ بسراجه، وترتلُ:

أي زمن ألج الآن

الأزل والأبد آن

والآن حضرة الديمومة

وسفرٌ آبد

أي ترنيمة تصلح

أن أستهل بها سفري

أي سبيل يفي

بالخروج من مقام التيه واللوعة

ويالها من لوعة

الأخيلةَ أم الخيولَ أمتطي

عبر متاهتي المنصوبة أمامي

كتجليات المرايا في المرايا

بالمعرفة أم بالفراسة أستضيء

في سبيلي المشكول من طَفلَةِ أرواح

مسفوكة بالعروش والنزال

فترمَّلَت عهودها

المرصَّعة بنفائس جوهرٍ غَنمَته

فغَدَرَها

بلوامعِ السماء أستدلُ

أم بالحروفِ الآبدة

في طوايا الرملِ

ليس من شيء سافرٍ

ولا يقين سوى المتاهة

دوام لا يكلُّ

زمن لا يدلُّ

وأماكن لا تهدي

السيف أجدى من كتاب

كتابٌ أجدى من رِفقة طائر

أم الوحي أجدى

أم لمحة

من شغاف الهادي المنتَّظِر

يصنع لي سراجا

من معدن روحه

ليضيء لي بنور لا يغيم

فأفوت به

عبر ساحات الوغى والوحشة

من غير أن أفنى

وآن تنتهي من وِردِها تكون إلى بستان التجربة، تمضي مثل ألفٍ مضيئة تنشدُ تعيُّنها وكمالها، تسير إلى بستان الأسرار، يغمرُ بصرَها بحرٌ من حليب الضوء، في قلبه لا ترى سوى قبةً، تصعد

مثل موجة، لها لون الحجر، وملمس نهار، ومن تحتها بناءٌ صغير، وجدران أربعة، تواجه جهات الأرض.

في الجدار الجنوبي، تلمح قوس باب، تدفعه وتدخل، تعاينُ بهاء السكون، وجلالَ نفس تمارسُ وحدتَها، وشيخا على بِساطِهِ يصلي، وفوقه، في سُرَّة القبَّة، طاقة مفتوحة على السماء.

يُرجف قلبَها الصَّمتُ، وصوتُ الباب المسكوك، يخدش رمل أرض لا تراها، وملاء من وجد المتهجد، يوحي إليها أن قَرِّي، تقعد على طرف البساط، خلفه، يفرغ من صلاته، ويتجه نحوها، تبادره بلهف الضَّال:

ـ "أين في بستان أسري يكون هذا المكان؟"

يقف أمامها، تحت الطاقة المفتوحة على السماء، يومئ بعينيه للنجم الساري عبرها.

ـ "ما بين قلبك وعقلك تكون خُلوة التجربة، بَساطةُ الوجودِ وعناؤه، بين جدران تذهب إلى أقطاب الكون الأربعة، وتحت قبة تحمل سماء، تحتها نكونُ، وبراح لنفسٍ تسعى في مداركها،

وطاقة تمنُّ على سرِّ خُلوتكِ بنور وظلمة، وأرض تحملُكِ، جسدا يحوي عقلا وقلبا، يحملان عمودَ الروحِ النافذِ عبر الطاقة، يصلُ بين نقطة وجود تتعلق في فضاء نون، وبين ألفِ الكلِّ في العُلى، يحملُنا بساطٌ، يأتيه الزمن من كل صوب، ويمضي في خيوط نسيجه حتى يبليه، فلا يعود له وجود، ولا لنا حياة، لينكشفَ مرقدنا الأخير، فراغ من حُلكة، يحيل البساط بيننا وبينه".

ينفذ ضوءُ نَجمٍ بعيد عبر الطاقة المفتوحة للسماء، ينفردُ مثل شاشة ضوء، تنشر في المكان ألقَ فضة، فيتراءيان، تتجه إليه رَندُ:

ـ "أي متاهة تجتاز، وبأي تجربة تمرُّ؟"

ـ "إن كمال جمالكِ لي، في هذا الكون، تجربة" يجيبها.

تجفلُ، وترجعُ بظهرها خطوة عنه، ينمُّ ثغرُه عن ابتسامة هادئة، تعكس ثناياه نسمة من فضة النور إلى عينيها، تطمئنُ إلى بساطه، وتقعدُ، ويقعد إلى جوارها، ويشير إلى أعلى الحائط الغربي.

ـ "سيبزغ بعد قليل نور نهار جديد، يوم تجربتكِ، فإلى حيث

أشرتُ انظري، وستبدأ رحلتكِ، سفركِ المقدَّر عليكِ، لا تأبهي للدم بل بالحكمة، حتى تجتازي متاهتكِ".

وكانت فضة النور تستحيل إلى رمادية، فيغشى المكان ضبابُ صُبحٍ ونورٌ لَمَّا يخلَصْ من ليله بعد، يمر عبر سرة القبَّة، من جهة المشرق، إلى حيث أشار لها، ترنو إلى شاشة الضوء الخفيفة على الجدار الغربي.

تناغش سمعَها ريحٌ، وتأوه رمح أصَم ينغرز في الرمال ويأسى، تتبع صوت أساه حتى تجيئه، ترى قناته مائلة جهة الغروب من أثر هوانه، وإلى جواره خوذة موسومة الأنحاء بخرائط دم، شُجَّ مَعدنُها، فانفصل عن قبتها هلال، تضمه في كفِّها، وتتبع وجعا يقبضُها، تلمحُ في غضون التلِّ جسدا مطروحا، مطعون الأنحاء بالنصال، تميل عليه بطرفها، فلا تجود نفسُه بأكثر من موتٍ حال.

تُريقُ على جسده بعضا من رمل تحنَّى بدمهِ، وتقرأ آية من كتاب شهادته، فيعبق تيهُها بصوت أذان له سحر نبوءة ترتاد

تخيالها، ويتردد في أسماع العابرين، يرتدُّ صداهُ إلى جبل كعَرشِ ملكٍ غافقي، حاشيةُ بلاطِه الشهداء.

ملكٌ رأته يتفقدُّ مواقعه، يطوفُ بين جنده، يُصلي بفرسانه، ويسعى بفتوحاته عبر أندلسه، إلى مملكة الغالْ، فتلحقُ بركبِهِ، وتذهبُ والذاهبين إلى غزوهم، يفتحون المدائن العامرة، يغنمون نفائس أيقون وجوهرٍ، يراكمُونَها في خيمة غنائمهم، ويحملون على الإفرنج، يأخذونهم أخذ المتاهة للضَّالِين، بتدبيرِ قائدٍ، دنياه سوى سيف سهل السجايا موسوم بطُغرائه، وروحه سوى حرف يحرث أزمانا بائرة، ليغرسه في معارفها، يتقدم مثل راية، ومثل ريح يتبعه مجاهدوه، ينفذون في الهول المحيط، فتغشى الساحات صلصلةٌ ولغةُ موت، وأنَّاتُ دروع هلعت صُلبانها، تُخادع بفرارها، لتنسلَّ من فلولها المهزومةِ سريةٌ تسلبُ خيمة النفائس المغنومة، فتتبدل سَكرة أعراب وبربر يرتدون عن نصرة ملكِهم ليدفعوا السالبين عن مادة كنوزِهم، تاركين أميرَهُم لسيفه، واختلال يسود صفوف مجاهديه.

يحوِّمُ وبضعُ زاهدين، يلمُّ شتات جند لا يأبه بغير غنائمه، ويواجه نصالا آيبة من موتها، وقوسا تراه رَندُ يزفر من وتره سهما يقرُّ في حتف ملكها، يرمي به عن فرسه، إلى بلاطِ شهادته، وفي جنبه غمدٌ، ترنوه خاليا، تبتحث سيفَهُ، فلا أثر.

وفي سمائه، كانت غيمة من طيور، تطوف فوقه، تهشُّ شهوة عقبان تتربص بالمطروحِ في دمه مجردا.

وفي براح الخُلوة تتحول رمادية الضوء إلى لون صُبحٍ يشرع في بسط نوره خالصا، فتغيب ملامحُ الجسد المغدور تحت نهار شمس تصعد وئيدة.

تهبط شاشة الضوء على الجدار، وتميل رَندُ إلى شيخها بشجنها، وألم يتخلَّقُ في منطقِها سؤالا:

ـ "أيشترون مقدار خيمة من معادن أرضية بنفائس أزمان ونفوس؟!"

فيُجيبها: "وقعوا في فخِّ حِسِّهم، آثروا متعةً على تاريخ وجود". وفي ذاكرتها ترتسم ملامحُ سيفٍ مفقود.

فتردف: "وغُدِرَ أميرٌ، نَاصَرَهُم برحمَتِه وعدلِه، مسفوكٌ سيفه، وهَلَكَ شيوخُ معرفةٍ، وقادةُ نزال!"

فيذكِّرُها "بالحكمة لا للدم نأبَهُ".

وينحو بطرفه إلى شاشة النور على الجدار، يرسمها الصبح الطالع، تكون بعينيها إليها، تنظر إلى رجل يرفرف بشمع جناحيه، يهلُّ من جهةِ الشَّمس، ينفذ مثل خيال، وينزلق في خفة على خيوط النور الكثيفة إلى فضاء الخُلوة، تفيض عليهما ريح حدائقه، وتلاحينُ وجع شفيف، ويذهبُ إلى بئرِ الضوء المرتكز في القبة، فترى لظلِّه سمت الزجاج، ولرَفيفه إيقاع شعر قرطبي يأخذه إلى منفاه، ومثل طائر مملوء بالسماء، ينغمر في السماء.

ـ "أي رجل كان، من له هذا البهاء؟" تسأله.

ـ "ابن فرناس، ملاكُ رَندَة، حارس طِيبِ الأندلس، صانع الميقاتة، وساحر الزجاج".

ـ "لم أر لطائر مثل رفيف أجنحته وحُزنه"

ـ "رموه بحجارة من جهلهم، فصاغَ من رملها قواريرَ عطرهم".

وعلى الجدار كانت قطرات شمع تسيل من جناحي العابر إلى الظلِّ البعيد، يجتازُ شاشة الضوء، ومعه تصعدُ شمس اليوم إلى منزل الإشراق.

وفي الخُلوة يسري عطر جاريةٍ تنجلي لخلافتها، تتأرجح صورتها على مويجات نهر قرطبي، يهدأ الماء، فيتجلى وجهها، مثل صُبحٍ لا ريب فيه، تسبح في طراوة النهر، ليس عليها غير خاتمٍ، في حُمرةِ عَقيقهِ نُقش وجهُ صبي، يلهو في عُزلة صِباه بحكايات ولاة وأمراء، ينظر من نافذته إلى الوصية على خلافته، تخرج من نهرها، تتحمم بالشمس وشهوةِ الحاجبِ المنتصبِ على ضِفَّةِ صُعودِها، يفردُ على عُريها ظلُّه، ويسفِكُ الأرواحَ الحائلة بينهما، ويقرِّبُ لصمت الناظرين ذبائحَ من منطقٍ وعِلمٍ، واجتهاد فلاسفة سوَّدوا بأعمارهم سلالات ورقٍ، أودعها نهرَ جُلوتِها ونارَ سَرِيرَتِه.

تدمع عينا رَند من قسوة ريح الحَرقِ السارية في فضاء الخُلوة.

ـ "أي عِلَّة تُحيل طِيبَ العطر إلى ريح احتراق؟" تعجَبُ.

يمد لها الشيخ يده بزجاجة ماء، ترشف رشفة صغيرة، تشعر لروحها بهجة، وفي جسدها تحسُّ نورَ اليقين يسري، فيخبرها:

ـ "هو بعضٌ من ماء نهرٍ عَمَرَ بأجساد كتب، ورمادِ معارفِ".

وكان ماء النهر يصعد بخارا من حروف، يُهرعُ إليه الشيخ يلمُّها في عباءته، وتتبعه رَند، تنسمُ بفمها في فضاء النهر فيصير البخارُ سحابا، تلمُّهُ في وشاحها، وتؤوب إلى الخُلوة، ويؤوبُ، يراكمان ما جمعا في بَردِ رُكنٍ ظليل.

وكانت الشمس تصعد بأوارها إلى كبد السماء، تسكب قيظها على القبة، فيهبط النورُ بثقل صهد الهاجِرَة، يبتعدان عن شاشة النار الجاثمة على بساطهما، تُزِّعُ نسائلَه المتراكِبَة، وتفرقُها في الأنحاء ألوانا مُفرَدة، تتشكَّلُ رايات، تهدرُ تحتها طبولُ عَنَتٍ، وفي نسيجها رموز أميَّة، وبربر، وعرب، وصقالبة، وعامريين.

طوائفٌ شتى، تتشاكسُ على متونِ نساءٍ وغلمان، وعلى خلافة تتشظى إلى ممالك مسفوكة الحدود، ورايات صُلبة، شرائح من طين محروق، يتخفى أصحابها في ظلها، بعباءات تُخفي صُرَرَ جِزيَتِهم.

تراهم رَندُ، يصطفُّون أمام المدخل الخلفي لخيمة القشتالي، يُكلِّلُ سوادَهم ضوءُ نارٍ تَتبعُهم، يقدِّمُون طُليطِلَة قربانا، ويمضون إلى ممالكهم، يصعدون بأرواحهم عبر حالات خمرٍ، يتربصون خلفَ أعمدةِ الرخام في أروقةِ نشوتِهم، يتطاعنون، يسيلُ الدمُ على الدمِ، يبتردُ بريح شمال تهبُّ على شراذمهم، تنحت طين الرايات، وتذروها ترابا لا يبين.

تسدل رَندُ على عينيها طرفَ وشاحها، وبطرفِ عينها ترى ظلَّ طائرٍ يأتي من جهة السماء، وشمسا تزول بقيظها عن طاقة الخُلوة، لتهيئ له مسارَه، يفوتُ، تبصرهُ من خلف حجابها؛ شهقة أخيرة طيَّرَهَا أسير، لتحطَّ في مَسمَعٍ يفتَديه، يحلِّق فوق رأسيهما كالألم الضال، يرومُ فديتَهُ وسُكناهُ.

عبر الطاقة تنظر رَندُ إلى ساحةٍ شاسعةِ الريح، هواؤها رمال، أُفُقُها من غُبار السَّمومِ، يسحقُ مادةَ الأبدان، ويَنذُرُ الحروفَ للسفر، فتستحيلُ خيولا، تعدو في مسالكها برجال يَتمنطَقُون بالزُّهدِ، وسيوفِ البداوةِ، يفوتون في عَصفِ الضباب كأطياف تلثَّمَت بالتوحيد، فما زِيغَت بالنفائس أبصارُها، تتقوَّتُ بخبز الشعير، تريدُ البحر تعبرهُ، ترومُ الأرضَ تملكُها، وتنفي من ممالكها ملوكا أترفوا فيها.

وفي سَمعِ المستورة بوشاحها، تهمي شذراتُ استنجاد، وهديرُ عجلات فرنجة، تحمل أبراجها، وتتكئ على أسوار سرقسطة، فتُهرع من خُلوتها، تدور حول المدينة، تبتحث ثُغرة تخلخل بها الحصار، فلا.

فتعود كالطيف إلى الأبراج، تربط أجرامَه بنطاقِها وتشدُّها، فلا.

تزفرُ بعضا من روحها برسالة تُطيِّرُها لأميرٍ يقبع في لثامه، ويحجمُ عن نجدة أنفُسٍ ترتجيه، ولَمَّا، فيجيب بسهمٍ يَخزُّ به

زفرَتَها، فتسَّاقط هشيما صامتا، ينغرز في أرض مدينة تذوب بقايا العزم في طرقاتها، وتُزيح عن أبوابها المغاليق، وتتجرد للداخلين.

وعند الباب تقعدُ، تنزعُ من جنبها سهما، وتنشجُ، فيكون إلى موضعها الشيخُ، ينفضُ عن وشاحها الغبارَ وهشيمَ الدَّمِ، تراهُ كالحلم الساري في صفرة شمس تأنس لأصيل كامد.

تفيضُ على الخُلوة نسائمٌ لها برودة رخام رواق، ورائحة شمع يذوي في فضاء وهمٍ من تراتيل أرِسطِيَّة، تتغنى بالأرض مركزا للكونِ، وصلاة دمٍ، لجيوش تترى على شاشة الضوء المنزاحة جهة الشرق، يتشح جنودُها بمسوحٍ بِيضٍ مذهَّبة الأطراف، محلاة بنقوش لها لون الدم في كفِّ المصلوب فوق مذبحٍ يداري محرابا، ويخفي آيات تتلوها.

تنظر إليهم رَندُ من خلف حبَّات دمع تسكن مآقيها، وترتقبُ الموحدين الجائين من بداوتهم، يَرفُون مِزَق أندلس تشظَّت، ينسمون الموت في مسالك تجربتهم، ويتهيأون، وفي أعقابهم جُندٌ حازوا صكوك غفران لما أثموه، وخطايا دم سيسفكون، يحفرون

في دروعهم صُلبانَهم، ويحوزون مجد الرَّبِّ، وأساقفةٌ تتقدم كالهَامَّة، تتبعُ جماعاتِهم شهوةُ ملوك، وأرواحُ فقراء قشتالة، ونافار، وسرية، وآبلة، وشقوبية، وجليقية، وأراجون، وفرسانُ معبدِ الربِّ الساكن قلب الأرض، الساكنة مركز الكون، الساري في مدار الروح القُدُس، الساهر في سماء الموقعة، يمنحُ المُعدَمِين الممنوحين للموت بركاته والغفران، ويدفئ خيمةَ مطارنة وملوك ينعمون بلذائذ دنياهم، ويتدرعون بالتروس، ويدَعونَ لِملحِ الأرضِ أسمالَ الخلاصِ، وصكوكَ سُكنى الروح في مدن السماء.

تنفرد مائدة النِّزال، وتنهمرُ طلائعُ الرَّبِّ، تنوش أجنحة الجيش البدوي، المرتدِّ إلى فراره، ويجثم جيش الفرنجة على أرجوان الخلافة، المشكولُ خيمةً تتدرع بالسلاسل ورماح حرس أسود، تنزل على دائرتهم سرايا قشتالة، ونافار، وأراجون، فتُدرك مصارعَهم، وتدعَهُم أشلاء، تتناثر شراذمها.

ينسلُّ الخليفةُ المهدور فارا من عقابه، يمتطي ليلَه وفرسا

شاهق الحُلكة، يعدو فوق دَمِ ناصِرِيه، يدوسُ بحوافره أرواحَ قرطبة، وبلنسية، ومُرسية، تجمعها كتائبُ قشتالة السارية إلى إشبيلية، تعلِّقُ أبراجها على الأسوار، وتنصب حول أزمان المدينة حصارها، وتصوغُ عهدَ تسليم أهلها، المتأهبين لهجرتهم، يضعون على العهد خاتمَهم ويرحلون.

وفي خلاء إشبيلية يمر فرناندو، تطأ حاشيته ظلال تواريخ تقوم على جانبي الدرب الآخذ بهم إلى قصر خليفة ضلَّ، يلجُ الملك القصرَ، في أصيل يفردُ صُفرتَه الكامدة على أرابيسك النوافذ الشاهقة، تسكبُ النُّورَ والمعاني المرسومة في زجاجها على رخام أبهاء يدوسها الداخلون.

تتسللُ رَندُ من بين جموع الواجين، مثل عِطر تفوح في أرجاء القصر المأسور، تسعى إلى صحائف المعارف المجموعة، تتراص خطوطُها ومخطوطاتُها، فتجمعُ في وشاحها تصانيف ابن رشد، وأسرار ابن طفيل، وحكمة "ابن يقظان"، وبراعة ابن ميمون، وتواريقَ تنبعث في حواشي الأوراق، وما بقيَ من ريحِ الذاهبين،

وصوتَ أذان أخير تعلق بمنارة تهذي بالرنين، وتمرُّ في بصرِ حرَّاسٍ كالنوَّمِ ساكنين، وتكون إلى خُلوتها.

في الركن تنظمُ ما أتت به، وتعود إلى بساطها، ترنو إلى عيني شيخها، ويرنو، يوحي إليها أن ليس سوى ميقات، تنحو ببصرها إلى السماء الوهِجَة بحمرة غروب قاتمة، وإلى فضاء الخُلوة المغبَّش بضباب الدم المسفوح عبر متاهتها، وإلى شاشة الضوء القانية، وإلى البحر يحمل سفنا تعود بفرسان رَاجِلة مجرَدة، وإلى غرناطة تكتسي طرقاتُها بمنايا الهاربين إلى نهاياتهم، وإلى الخليفة يهجر مفاتيح خلافته، وينزوي فوق تلٍ يطلُّ على قصر حسرته، ويزفر زفرته الأخيرة شجنا يكون إلى الحبيبة في خُلوتها، تتنفسه، وفي تخيالها سيفٌ مطرَّزٌ بطُغراء فارسه، وخَاتَمٌ منقوش في عقيقه ملامح الحبيب، ورايةٌ منسوجة بالمدائن، وحرفٌ يجمع الرُّوحَ والجسدَ في آن، وفارسٌ شاكي النفس بالمعارف، وفرسٌ مطهَّمة بالتعاشيق الموهوبة للشمس الراحلة الآن عن غروبها، تاركةً عالمهَا لِلَّيلِ الصَّاعد، يحمل بضع نجوم

وقمراً يجود بفضةِ نورهِ على القَاعِدة إلى بساط خُلوتها، تَنظِمُ في نفسها معارفَ تجرُبتِها، وتميلُ إلى الشيخ القائم تحت طاقة النور كجسد من وحي، ترفرف عباءته بنسيم نبوءة، وينطق:

ـ " حان آن خروجك، وبقدر ما حازت مدارِكُكِ يكون وصولُكِ".

تطرقُ وتقوم إلى خروجها، وتنطقُ:

ـ "أما لنا من عَودٍ أو تراءٍ؟"

فينبئ: "لقد صرتُ في ذاتِكِ، إن شئتِ ففيها تريني".

فتسأل: "وتظلُّ؟"

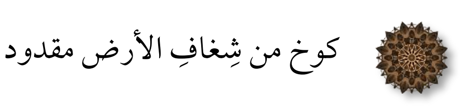
فيجيبها: "هنا آني ومكاني، دليل السالكين عبر متاهتهم، أسقي العابرين إلى دنياهم أو حتفهم، والمارقين من ظمأٍ إلى ظمأ".

فتكون إلى الباب، تفتحه، وتنفذ من خُلوتها إلى سبيلها، تغمرها سبيكة الليل، وتنحو إلى بستانها، وفي رسومِ خَطوِها ينبت الريحان.



﴿ 7 ﴾

أندَلُسُ الوَجدِ



كوخ من شِغافِ الأرض مقدود

حوائط من جذوع أشجار نُسغها ساري

سقف من هشيم فروع وأعشاش طيور وطيور

وفضاء يعبق بوجود لوركا وترانيم ماريانا

وعطر يفوح من صدره، وأسى، وشمعة ملموسة برجفتها، تشعلها ماريانا عند قدمي المادونا الآسية، المعمولة من خشب زيتونة غرسها لوركا ذات قمر، تركع في ركن صلاتها الفقير، وتشرع في الترنُّمِ ببعض آيات وأشعار الحبيب.

يصعدُ نور الشمعة المصفَر عن بدن المادُونَّا المشرقة في خفوت ضوءِ الفجر، يمرُّ عبر شقوق السقف إلى السماء، يطوف وسِحر أغنية شجية، يفيضُ بها لوركا على ملكوت ماريانا، الغائبة في صلاتها، تنهمر المعاني على قلب السَّاهمة، فتقوم من تحت نور

شمعتها، تَنشُجُ، فيما يبدأ النهار يصعد، رمادي الإيقاع، متسارع النَسمِ، خافق، ويرقى العاشق بمعانيه، فتخطو إلى حيث يجلس، ينصهر في حالات عينيها، ويذهب بالقصيد إلى مقام شجنٍ، وتُنصتُ إلى موسيقى عينيه، تميلُ إليه، يجذبها المُقام، وفي النفس جزع الرحيل.

تميل إلى شفتيه، تضع قبلتها، ودمعة دافئة، تمتزج بِحَرِّ دموعِه، ودون أن تلتفت عنه تكون إلى الباب، تفتحه، يتدفق الفجر إلى الجالس يسطرُ آلامَه على مسامع الكون، وتخرج المهاجرة، إلى الحقل المجدب تكون، وتعبر درب الرمال إلى المدينة.

ومن الأكواخ المنثورة في غير إيقاع، على مدى الحقول المفتوحة للبصر، تتبدى أشباح الخارجين في أسمالهم، يحملون جوعهم، وأحلاما ذهبيةَ الزخارِف تُكللُ رحيلَهم إلى مدينة السماء، ومعاناةَ سفر، وما بقي من فؤوس ومناجل، يحرثون بها مسيرتهم إلى عرش الربِّ الساخط عليهم، في مدينته المقدسة، علَّه يعفو، أو علَّهم يدركون فضلةً من فيض ثروته.

يمرون تحت طواحين تحطمت ريحُها وريشاتُها، ويمضون إلى مَحَفلِهم، وفي جمعهم تسير ماريانا، وليس معها غير صُرَّة من نسج يديها، تحوي رغيفا وحبات زيتون، وبضعة أوراق، وما في قلبها سوى مدينة الربِّ ووجه شاعر، وما في بصرها إلا سُبل رحيل، وفي النفس ظمأ، يروم سُقياه في قلب كوخٍ فقير في أندلس الروح، المتروكة للجوع.

تتردد أصداء هدير في أرض الذاهبين، يصحبه رنين أجراس نائية، رنَّاتٍ خافتة في وقار، تهبط على أسماع العابرين مثل وحي، فيذخر المدى بأذرع تدور على أنحاء الجسم ترسم صُلبانها، وفي الأبصار يتجلى زحام من المرائي، أحلامُ نهار، ويأخذ الرنين في الوضوح، متجسدا كرؤى يقظة في خيالات السائرين، كأن بِشارة تحملها المادونا المحلِّقَة ترشدهم جهة الشرق، كأن فارسا يقاتل بصليبه ويظفر بالنصر، وترتفع أصوات جوقة تُنشد قداسا احتفاليا، يسمعها المنذورون للرحيل كإنشاد ملائكة تدلهم إلى سبيلهم، يتجهون إلى حيث تصدر الترانيم، من كاتدرائية المدينة،

إلى حيث يركع مطرانهم يصلي، داعيا لحملة المخلِّصين لمدينة السماء بالمغفرة وعفو الآخرة.

وفوق تراب الحقول الجافة، كانت الفراشات الذهبية تسبح في الفضاء القريب، فوق رؤوس الراحلين، حتى يوهنها السفر، فتحطّ على حواف الأنهار الجافة، وتحت أقدام السائرين، وعلى ملائكة المدينة المنصوبة على حواف أفريز الكاتدرائية، ينتصبون في شموخ حجري نحو السماء، وبثقل مادتهم يتمسكون بالأرض، ويتهيأون لقدَّاس وداع.

في الأفق ينساب صوتُ غِناء تعرفه ماريانا، يصير إلى مداه، يستحيلُ إلى نَورَسٍ صادق البياض، يدفُّ متجها إلى حيث تكون، ويعود ثم يعاود، حائرا. يبتعد إلى جهة البحر، تحرقه اللوعة، يقف على نهاية شراع شاهق، وفي حزن يرقب بحارة يحملون إلى سفنهم صناديقَ غنموها ذات نِزالٍ، يعرف زخارفَها الموشومة في جنباتها، ويلمح في قلوبها سيوفا رآها تتلألأ تحت شمس قرطبة، وغرناطة، والمريَّة، ومالقة، وإشبيلية، وجبل

طارق، ومُرسية، وبلنسية، وطليطلة، وسرقسطة، وقشتالة، فوق خيول عربية تشتهي الفَتحَ وصلصلةَ النصال، وصناديق أخرى تحوي كنوزا كانت لفرسان حازوا قلوبا لها براح الصحراء وجَلَدِهَا.

يرقبُ القائد المنذور لاكتشاف العالم الجديد، يخطرُ على سفينته "سانتا ماريا"، يتعلق بجنبه سيفٌ موسوم على غمده حكاية حبيبة مأسورة، وعلى المقبض نبوءة التيه والخلاص، وعلى صدره كان رنين خافت، بفعل تخبُّط صليب من ذهب بمفتاح غرناطة، ومن قلب السفينة يصدر غناء بحارته:

على صدر سانتا ماريا

يصلي الحبيب كولمبس

ويتأهب للرحيل

إلى ما وراء الأفق

إلى موطن السحر

دون أن يهاب المجهول

فعلى صدره تعويذته

وخلفه رجال شجعان

وتحته الجميلة

سانتا ماريا

سيذهب بها إلى عالم جديد

ويعود بأحلام خلابة

لينثرها على الجميع

فليحمه الربُّ

ومثل عطر يذوي، يتلاشى النورسُ كإيقاع خافت لقصيدة بعيدة، خفوت أغنية لا تنتهي، تكون إلى روح ماريانا الذائبة في جيش الفقراء المتراكم على جنبات الطريق الملكي، المؤدي إلى السلم الرخامي المهيب للكاتدرائية، المهيأ لاستقبال فارس حملتهم إلى تخليص الربِّ، يتمتمون بصلواتهم، ويقضمون من كسرات الخبز الجاف في صررهم.

وعند أبواب المدينة، في ركن خفي، كان "سرفانتس"، مثل

كهل يُهرع بريشته على صحائف ورق مذهَّب الأطراف، يخطُّ سِمات فارس الخلاص في سرعة ودقة، وأمامه يتخلق وتمام الحروف الفارس على فرسه المطهَّمة، ودرع تحلى بتطريزات قوطية، ورمح يقدرُ على مناوشة الهواء، وخوذة تحولُ دون تشتت الأحلام، أو خروج الأفكار.

عند صعود الإنشاد إلى مقام تمجيد الربِّ، تصدح الجوقة مرددة "هللويا، هللويا، هللويا"، تتحول حروفُ سرفانتس إلى جسد متعين، يجمع الفارس وفرسه، ويمنحه اسم "دون كيخوتة"، فيتقدم باسمه وفرسه إلى أول البساط البابوي المفرود له، تنحني لمروره الجموعُ المتراكمةُ على جانبي الطريق، جنودُه الفقراء، قربان خلاص معبد الربِّ، فلا ينظر إليهم، ويمضي إلى حيث تنتظم جماعة فرسان المعبد، في احتشادهم المتأنق، يرفلون في عباءات المخمل، قانية الخوافي بيضاء الظاهر، يرفعون للفارس سيوفَهم، فيما تتردد تحتهم الخيول بين لهفة السير وسطوة اللجام القابض على فورتها الموروثة.

كانت شمس اليوم تخفتُ في إيقاع رحيل كوني، فلا تسمع النواقيس المعلَّق وجودها بدوام رنينها الاحتفالي، أو الإنشاد المدوِّي للجوقة المختبئة في تفاصيل الكاتدرائية، تاركةً للملائكة والرُّسلِ والشهداءِ المبعوثين حجرا في الجدران المحيطة متعة الدفء، والإطلال على المتأهبين لحملتهم، ولا يبوحون بسرِّ الفارس المخطوط توا. و

ومن عليائهم، ترقب الأجساد الحجرية روعة الجمال الدنيوي البادي من مزق رداء ماريانا، تمسكُ في كفِّها أوراقا تقرأها، وفي بصرها تتشكل الكلماتُ أطيافا من لدن حبيب، تهيم حروفها فوق هدير الحشد، موشَّحُ وجعٍ، فلا يكون سوى صمت من دون سكون، يتواصل على إيقاعه وجدُ الحبيبة هنا، والحبيب هناك.

يخرج المطران، يمرُّ تحت رصائع من آيات قرآن يناغش حروفَها ظلالٌ ملونةٌ تسكبها نوافذ رومانسكية، يفوت تحت سطوتها إلى أعلى السلم الرخامي البارد في مهابة، مطوقا

بالشرائط الذهبية، وتاج الكهنوت المهور بلون الخمر المقدسة، يتكئ على صولجانه، وخلفه، على عصا فقيرة، يتكئ أرسطو، الفَزِع من هول الزحام، ترتبك خطواتُه، ويتقدم المطران نحو الفارس "دون كيخوتة" ليباركه، فلا يترجل عن فرسه أو ينحني، وبدا مثل نقش أنيق، جميل التكوين، لا يصدر عنه سوى ما يدل على وجوده، مثل شخصية روائية تُدرك أنها ستبقى خالدة، وأن لا معنى لفعل بذاته.

سار إليه أرسطو، متقلقل الخطو مثل عصاه الهزيلة، وقال له:

"لقد كرَّم الخالقُ الأرضَ بأن جعلها مقراً لنا ولأرواحنا في دنيانا، ولكنها إلى فساد، لا يثمرُ فيها غيرَ النَّقص، أما الخير والكمال، فهناك، فيما وراء القمر المضيء بنور الرحيم، فكُنْ له في خَطوِكَ، يكن لك نورُه في العالم الآخر، كُن مثل التراب العالق بأجساد وأسمال جنودك الفقراء، فتَقَرُّ في قلب الكون الإلهي، ولا تكُن نارا تحملها خِفَّتَها إلى أعلى، حيث إلا الخواء، وعماء ما قبل الكون، ما قبل الروح الحاملة لغبار الربِّ".

خرجت الكلمات من فِيهِ خافتة، مثل روح وحيدة تغادر سُكناها إلى العُلى وهي تعلم أن لن يفتقدها أحد، مرَّت إلى أذن الفارس الصامت مثل أيقونة، متجها ببصره إلى المطران المتخم بثراء المخمل ونور الرَّاحة، يجلس على بهاء كرسيِّهِ، يرفع كفَّه البيضاء، المرقومة بشامات آخر العُمر، يرسم الصليب في الفراغ بينه وبين الفارس، الذي يشدُّ غطاء خوذته على وجهه ويمضي، تتبعه الهتافات شعب من الرُّحَّلِ: "ليحمه الرَّبُّ".

تتناثر بقايا أصوات الراحلين على ذرَّات غبار تثيره خُطواتُهم وتنظم تراتيلُ الجوقةِ خطوات الخيل الفَرِحة بفرسانها. وفي قلوب الحفَاة، الذين يحملون المناجل المثلومة وعصي اتكائهم، كان رحيق غناء ينبض مثل وَجَل غامض يعتريهم، لا يعلمون له مصدرا، أما هي فكانت تعلم.

لا يبقى في الساحة سوى الغبار، يغادره المطران لائذا بخلوته الموسِرَة، ويغادر أرسطو إلى نهاية الميدان، حيث يقف شيخ مهيب ينتظره، يجمع الشيخ صحائفَه وريشاتِه في كيسه، ويمشيان معا،

يستند أرسطو إلى ذراع رفيقه ويحدِّثُ:

ـ "والآن، بعدما قرأت جميعَ شروحك ونقدَك لكتبي، هلا تفضَّلت علي ببعضٍ من نور فلسفتك" ثم يردف:

ـ "هل تظن أن ذلك الفارس قد سمعني؟"

كانت الشمس تتأهب للرحيل، وفي المدينة، كان الغبار قد سكن الأرض، وفي ركنه المنزوي، كان "سرفانتس" قابعا، يشعل شمعة الدُّهن السميكة، ويكمل على صحائفه المذَهَّبة تاريخَ فارسه.

في الميدان، تهبُّ نسماتُ أول الليل، تلهو بورقة تنضوي على بعض ضوء، وبعضِ أنينِ بُعدٍ، يدفعُها النَّسيمُ إلى ماريانا، تنحني إليها، تلتقطها، تجد لها رائحة البساتين البعيدة، وملمس الوَجدِ، تفردُها في بصرها، تشعر منها نبض روحٍ تروم اللقاء، وتقرأ فيها:

آه يا لطول الطريق

آه يا فرسي الشجاع

آه يا للموت المنتظرني

قبل أن أدرك قرطبة

قرطبة

قاصية ووحيدة[5]

تبتل خطوط القصيدة بطِيبِ دمعها، ويأخذ المعنَى المنظُوم شِعراً في الصعودِ بألِمه، يوحي إليها أن امضِ إلى مجازات المتاهة المقدَّرة عليكِ، فهي قُربانُكِ لأجل العَود.

ومثل بَخورٍ له عَبَق اللاهوت تمضي الحملة، تدفعها ريح الشمال الباردة إلى شرقٍ لا يعرف إلا الدفء، وأريجَ عطور الذَّهب، وفوحَ الممالك المبسوطة بقدر الرغبة الراحلة إليها.

ومثل زهرة، تكون ماريانا في وهج نيران معسكر الحصار، تُخرج أوراقا، تحوي أشعار الحبيب النائي، لتتأمل روحه المنطوقة أبياتا تتردد في وجودها، تجد الأوراق إلا ورقةً، تفتش في أشيائها المتاحة في صرَّتِها، لا تجدها، ولا تأسى، وترنو إلى النَجمِ السابحة

---

(5) قصيدة "" للشاعر الأسباني لوركا.

في ملكوت ظلمتها العالية، تدرك أن ما تفتقد من روح الحبيب قد لاذ بروح تحفظه.

تقوم إلى السُبل المفرودة في التلال المحيطة، تنظر إلى خيمة القائد الزاهية، تصبغها النار الهائلة أمامها بوهج دنيوي، يتألق على حُمرةِ الصليب المرفرف في بياض رايته، وعلى وجوه الفرسان المحيطين بقائدهم، يمرحون على موائدهم، وفوق نساء، تلمحهن يمرقن مطأطأت عبر الفروج الخلفية لخيامهم، كانت تعرفهن، وتعرف اللون الوحيد لأسمالهن، وأجسادهن المحنيَّة، وتفكر في رغباتهن في الخلاص من العَوَزِ، وارتقاء ملكوت الرَّب بتقديم أنفسهن قربانا لرُسُلِه، الذين لا يخلعون هالاتهم النورانية، حتى وهم فوق نسائهم الفقيرات، أو وهم يحرقون الأرض التي يجوزونها، يدوسون رجالها بحوافر خيولهم، ويدَعون الدمَّ المنهوب يُروي مسارات زحفهم، يُنهكون المدنَ التي يمرون بها أو تمر بهم، ينكأون النساء بثقل دروعهم، ويسلبونَ من الأطفال لهوَهُم، ومن الرضَّع حليبَ حياتهم، وفي

مرح زحفهم تترى المدائن؛ القسطنطينية، بيزنطية، نيقية، انطاكية، طرابلس، الرَّها، بيت المقدس، وإلى فتوحاتهم تَرِدُ مؤنُ عَرَبٍ يأمنون بها منهم، ويدفعون بها خوفهم، ويَدعُونَ مقدِسِهم للغازين ثمرةً.

في صلاة الناسكين تصلي ماريانا، وترسل للبعيد بشجوها، وللواحد العلِّي بنُطقِها: "لأي بيع يدفع المذبوحون دمهم؟"

وتنطق: "لأي مقدَّسً يكون العنفُ؟"

وتنطق: "أي سبيل يُهدر كل هذه الأرواح، وأي ربٍّ؟"

وتنطق: "بأي غفران نلوذ؟"

وتخرجُ عن فَلَك النار المُوقَدة تحت أسوار المدائن، وتخرج عن رؤيا الفرسان اللاهين بالغزو والنساءِ وخمرِ المدائن، وتخرج عن حشود التابعين، يلغطون، ويسفحون الدَّنَس المتروك لهم، تردد أنفاس العاشق، فتستحيل طائرا، تتبع وحيه إلى أرضها، وفي رفَّات جناحيها يعبق الآس.

﴿ 8 ﴾

الزَّاجِلَة

يكون المساءُ، يبدأ الصبي في سطوحه الصغير يلملم خيطان طائرة ورق.

في نافذته، يراها نون وخفقَ بدنها الرهيف، تتجاذبه يد الصَّبي والريح. ترغب في الصعود، الخلاصِ من تعلُّقِها بالتراب، تهبطُ، تحلمُ بطيران حُرٍّ، تنحدرُ، أن تصير نفساً خالصةً من خيط عودتها إلى نقطة بعينها، يزداد انجذابها إلى الأسفل، حتى تختفي من إطار نافذته، يقوم، يراها في كفِّ الصبي، يمضي بها، وخلفها كانت ذرَّاتُ حُلمٍ ترسمُ طريق عودتها إلى حجرة رطبَة صغيرة، تحت سطوح كهل.

تمرُّ الحَمَامَاتُ أمامَه عائدة إلى ليلِ أكنانها، يمرُّ بعضُها عبر نافذته والباب المفتوحين، تبقى إحداها، تقف، غير خائفة، فوق رسم مفرود على منضدته، يصور "كولمبس" جاثيا أمام "إيزابيلا"، الجالسة على عرشها، وخلفه ركام من صناديق،

تحوي ثرواتٍ جلبها من العالم الجديد، لأجل استعادة بيت المقدس.

تخشخش الورقة تحت قدمي الحمامة، الساكنة إلى المكان، تدور بعينيها إلى حيث يقف "دون كيخوتة" فوق جبل الفرح، ينظرُ إلى حُلمِ "كولمبس" المنقوش زخارفَ على الهيكل، تطير إلى القبة المرسومة في أفق اللوحة، المعلقة على الجدار، تحاول أن تحطَّ عليها بقدميها الرقيقتين، تُهوي، تعاود، تحاول مرة أخرى، تضرب بجناحيها بشدة، تنزلق قدماها، تدرك الاستحالة، تدور في فراغ الغرفة دورة تامة، وتنفذ عبر الباب إلى كنِّها.

ويجتاز نون الباب خارجا، يمضي إلى الطريق، تحت مساء ينفرد على ما بقي من ضوء نهار غارب، فيُحيلُه ليلا، يمشي في الشارع الصغير، يتبع المشَاعِلِيّ وهو يفوت على فوانيس الزيت المعلَّقة في جنبات البيوت، يحطُّ النَّار نورا في فتائلها، فيسُودُ الشارعَ مِزاجٌ من الصُّفرة الدافئة والعتمة، يمر بدكان أم الخير، يراها تخرج، لها ريحُ ريحان وعينا النَّرجسِ، وفي فمها مضغة

مِستِكَة، يجتازها بخطوه، وبنفسه يصير إلى رَند، الماضية في عِرفَانِها، تسعى للخلاص من تيهِهَا لتأتيَهُ.

تمضي أم الخير إلى المَقَامِ عند ناصية الشارع، تخلعُ نعليها تحت قوس بابه، تنحو بطرفها نحو شمعتها المحطوطة على إفريز شُبَّاكه، لم تنطفئ، تدخل تحت نور السِراج، المعلَّق فوق الشيخ الجالس إلى صحائفه وريشات كتابته، أمامه قارورة من زجاج عتمَت شفافيته بسواد المِداد، تقعد إلى يمينه، لا تتفوه بكلمة أو تحرِّكُ سوى فيض الهوى من طِيبِ ريحانها، ترقبُ الكفَّ الكهلة تحنو على ريشة كتابةٍ، يغمسُ طَرفَها في المداد، وبالمعنَى يسوِّدُ صحائفه المفرودة أمامه، ثم يضعُ ريشتَه، ويصير إلى الحاضرة في جواره، يمدُّ الكفَّ للكفِّ، ويحنو على وجودها بنظرة من قلبه، تنفذُ إلى روحها، وتردها بنظرة تحمل شوق الولهانة، من دون كلام، وتضعُ له في عينيه ابتسامة، يتلألأ بها ثغرُها، تحت سراج يشهدُ لحظة الهوى في سكون العارف، وتقوم، يتابع الشيخ خطوَهَا، تعود إلى الباب، تضع نعليها، وتمضي إلى دكانها، وهو

إلى معارفه.

يمضي نون إلى طُرُقات مدينة تخلع في الليل أردية أزمانها، لتجذبَ أسبابَ يومٍ جديد، وتمنحُ الوالجين لذةَ التَحوِيمِ في فراغات هيأتها لهم.

تنُوشُه غربةُ متوحِّدٍ، يدور في هَرَج الميادين، وزحمة أضواء تُخفي زخارف أزمان حفرها في جدران مساجدَ، ومدنا كانت له، وأهلَهَا، فأسلموها إلى حتفها، ولم تعد سوى تاريخ، يمر تحت ذكراه، ويعود إلى شارعه الصغير، تحت سمائه الصغيرة، ودكاكين غلَّقَت أبوابَها واستسلمت لهجعة الليل، ودفء صُفرة نور يمتزج بعتمة أليفة، وتألق شمعة وحيدة تدلُّه على المقام، يتجه إليه، يخلعُ نعليه تحت قوس الباب، يدخل إلى براحِ نورِ سراج، تحته يخطُّ الشيخُ تواريخَ من بادوا وأبادوا، وحظَّ من بقِيَ، وقَدْرَ الأحلامِ في نفوس الواهين.

يهمس نون بالسلام، يُكمل الشيخ عبارته، يخطُّها في حرفٍ أندلسي جميل، يضع نقطة نهايتها، وينظر إلى الواقف بين يديه،

يقعد، يناوله الشيخ ما خطَّ من صحائف، ودواة مداد، وريشة يعرف ملمسها بين أصابعه، يقعد نون إلى لوح كتابته، يضع أشياءه، ويجهز صحائفه، ويشرع في نسخ المخطوط، وبين العبارات يرى حبيبته تدنو من مرادها، تخطو، فتنبتُ في آثار خطوِهَا حبَّاتُ ذهب، يلمُّها جنودٌ يتبعون تيهها، يكدِّسُونَها في سفائن غزوهم، ويبحرون إلى أرض رغبتهم، يتبعون حلمَ قائدهم "كولمبس"، الذي يضع منظاره على عينيه، ويمر ببصره على طول الشاطئ، يدبِّر لأرض الميعاد زمنها الآتي.

يرى "كولمبس" خضرةً الممدودة ، طواطمَ منصوبة، لتمنع، عن بكارة الأرض، غزاة لمَّا يصلوا بعد، ألَّهَهَا شعب يمارس حضارة البقاء، وبساطة وجود تشغله أفراسٌ برِّية وطيور، وأرضٌ تمنحُ ساكنيها الحكمةَ ووسائلَ العيش الكافية، يحجبون عوراتهم الفطرية، ويحيون بحسب عقائد الطبيعة وفضائل الإدراك البدائي.

تدنو السفائن من مُرساها، تحمل بحارة تبدَّلَت أرواحهم

ببريق ذهب يرجُونَه، وفضائلُهم بشهواتٍ كمَنَت في أبدانهم زمن رحلتهم، تراودهم أحلامٌ بملامس نساء تخمَّرن لهم، ويتتابعون على الحجر المهيأ لشحذ سيوفهم، التي وهبوها لفناء دَمٍّ يستوطن عُشبَ حضارته، ولا يملك لنصالهم دفعا.

على مذبح الرَّبِّ يضع جنودُ "كولمبس" شعبَ العُشبِ قربانا، ويجمعون لقائدهم الغنائمَ، فيجثو في محرابه المتواضع، يصلي، ويقوم إلى أوراقه، يكتبُ إلى مُطرانه:

"لقد جرى الاضطلاع بهذه المهمة لننفق ما سوف نكسبه منها في ردِّ الديار المقدسة إلى الكنيسة المقدسة"[6]

ويكتب إلى ملكيه فرناندو وإيزابيلا:

"عندما بدأت الاستعدادات لاكتشاف جزر الهند الغربية، كان ذلك بقصد مناشدة الملك والملكة عاهلينا، اتخاذ قرار بإنفاق الموارد التي يمكن أن ترد إليهما في استرداد القُدس"[7]

---

(6) من خطاب أرسله كولمبس (عام 1492م) إلى البابا.

(7) من خطاب أرسله كولمبس (عام 1501م) إلى ملكيه فرناندو وإيزابيلا.

ثم يملأ صفحة يومياته، ويخرج إلى الأرض الجديدة، ينتهك عراياها، وأسبابَ حضارة يُخضعها للاهوته، ويمنح أهلها الكساء، والخَرَزَ الملوَّن، والموتَ، ليجني من فِردَوسها أحلام غزو قُدسٍ تلغَط بالهَمِّ، وترقبُ حوافر أفراس "دون كيخوتة" وهي تمرُّ على أبدان أنطاكية، وطرابلس، والرَّهَا، تنثرُ خلفها مِزَقَ الآبهين بأرضهم، ودمَ المنافحين عنها، وبقايا من دافعوا عن الأسوار، وماتوا تحتها، وهولَ من رجفوا، فقدموا مفاتيح الولوج إلى مدائنهم قربانا، وهلكوا.

ومن حومانها الحرِّ تُبصر ماريانا سبلَ الدَّمِ، وتأسى لإيمانها، تَدُفُّ بوجعها وجُوعِها إلى أرضٍ تقبلُ بها، وفي مسار طيرانها تنثرُ خوافيها، رسائل محبةٍ وسلام، وتمر في سماء "دون كيخوتة" فلا يراها، ولا يَحُولُ إلماحُها إلى قلبه دون أن يكيل الطعن للآهلين، أو أن يخوض برمحه في دروب مدينة الرَّبِّ، القابع على جبل التجربة يبكي، ويرقب من عليائه سقوطَ "بيت لحم"، ووصولَ حملة الغزاة إلى مشارف المدينة المقدسة، يرقبون أسوار المدينة،

التي تُهيئُ لهم من حدودها نارا، فينصبون الحصار، أبراجا من خشب، ويتنازعون في نفوسهم العرشَ المقدَّس.

تَحملُ عليهم المدينةُ بأحجار بيوتها، وسهامٍ تعرف مصارعها، وشذراتِ نار، وافتخار بصمود لم يلبث أن تحطم تحت فيض حملة الصليب، يدكُّونَ الأسوار، ويبسطون الموتَ على طرقات مرورهم إلى مسجدٍ أقصى، ويفخرون بمفاتيح "يافا"، ويأخذون أهلها أخذ الفناء، لتصعد الأرواح المغدورة إلى سمائها، تمرُّ بطائر يحوِّم فوق مواقع شهادتها.

تمضي ماريانا في سفرها محلِّقة، تجذبها لمحةٌ من ريح لوركا، تصيرُ إلى حيث تخطرُ رَندُ عبر بستان أسرها، تحمل في الكفِّ ورقةً وجدتها تحت الريح، تستدفئ بقصيدِها، وتصير إلى دار خلاصها في أطراف البستان، تدنو من نبوءتها، يغمرُ سَمعَهَا صوتٌ، يأخذها إلى باب دخولها، تدهشُ لروعة زخارف على ضلفتيه، تصوِّرُ معارفَ سُرَّت قبل الآن، وطيورا، وتواريق، وقبضة من نُحاس، تمدُّ إليها كفَّها، تطرق بها، فلا أحد.

تذكرُ ما كان من تجربَتهَا فتردد اسم الحبيب، ينفتح لدخولها، تشمُّ رائحة زهر البرتقال، وتسمع ترنيما مبهم الحروف يأتيها من الأنحاء، وترى نوافذ شاهقة، مرسومة بالنور النافذِ عبرَها، وألوان ملكوت بعيد، ينثال الضوء منها إلى بُسُطٍ معلقة، تحوي رموزا منقوشة باليد، تملِّسُ عليها بيدها، تصير للأنسجة لون الروح، ويخفت النور، ويكون شعاع له طعم اللوعة وهدوء نفس استقرَّت، تتبع رند وجهته، فيأخذها إلى محراب بآيات تعلمها، وخطوط تقرأها:

"فلو لم يكن لموجود فعلٍ يخُصُّه، لم يكن له طبيعة تخصُّه، ولو لم يكن له طبيعة تخصُّه، لما كان له اسم يخصُّه، ولا حدٌّ، وكانت الأشياء كُلّها واحدا، ولا شيئا واحدا"[8]

ما إن تنتهي من قراءتها، تبدأ النوافذ في إرسال نورها، تدلُّها إلى الأشياء، وإلى مسارِها، إلى سُلَّمٍ من خشب زيتون له لمعة سِراج ورائحة سلام، تصعده إلى باب مكفَّت بتواريق نُحاس،

---

(8) الفيلسوف الأندلسي ابن رشد (1126-1198) "تهافت التهافت".

وموزَّق بأسماء من مروا به، تأنسُ إلى نقوش لها جلال الكون التي تُسِرُّهُ في قلبها، فتضعُ البَصرَ حيث زهرة اسمها، وتدفع الباب، فتكون إلى قبة يتدلى سراجها خافتا، يشرع في ولادة نوره للداخلة، تنمحي العتمة الموصود عليها، وترى صندوقا موشَّحا بتشاكيل أرابيسك، وخزائنَ من أشجار مُدن تعرفُها، وفي أرحامها كتبٌ مذهَّبة الجنبات ، تتفحصُهَا ببصيرة المشتاق، تمر على الأسماء: "*شرحُ كتاب السماء والعالم*"، "*جوامع الخطابة والشِّعر*"، "*مقالة في العقل*"، "*رسالة في التوحيد والفلسفة*"، "*مسألة في الزمان*"، "*تلخيص كتاب الكون والفساد*"، "*فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال*" وفي أحدها تقرأ:

"فبيِّنٌ أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن في سبيله بما قاله مَن تقدمنا في ذلك، وسواء كان الغيرُ مشاركاً لنا أو غير مشارك في المِلَّة، فإن الآلة التي تصحُّ بها التزكية، ليس يُعتبر في صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا في المِلَّة أو غير مشارك، إذا كانت فيها شروط الصحة، وأعني بغير

المشارك، مَنْ نظر في هذه الأشياء من القدماء وقبل مِلَّة الإسلام"[9]

تؤوب من كتابها إلى زمن وجودها، تنفتح النوافذ إلى أقصاها، تخرج إلى براحِهَا، تفيض عليها السماء بكلِّ نورها، فتستحيلُ زاجلةً، تطير فوق المدائن، تلمحُ في فضائها رفرفات حُزن تتجه إلى أرض غادرتها، تقترب من الطائر الوحيد، تتناظر الأعينُ، وفي جميعها بريق ألم مكتوم.

تنطلق ماريانا إلى حيث غادرت الحبيب، وتنطلق رَندُ، تكونان إلى حيث الجسد المهدور، يحتضرُ تحت زيتونة جافة، تُهرع ماريانا إلى حيث الروح الخارجة من الجسد المغدور، تنتفض نفسها بالأسى، تتلقى الروحَ السارية إلى عُلاها، تلمُّها بين جناحيها، وتلمحهما رَندُ؛ روحَ شاعر وطائر، روحان تتشابكان في صعودهما، تكملان قصيدةً خلقَاهَا معا، ينثرانها من سمائهما

(9) الفيلسوف الأندلسي ابن رشد (1126-1198) "فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال".

على الآتين.

تهبط رَندُ إلى الزيتونة، تلتقط غصنا مازال به بعض خُضرة، وتحلِّقُ، تعبر أندلُسَها، يلمحها "بيكاسو" اللاهي على شاطئ كانت قد التقت عنده الحبيب، يرسمُ على الرمال خطوطَ جسدها، وهي تسبح في الفضاء كالوحي، تعبر بحرا، وقُدساً يمرح الدُّون المارق عبرها، يقاتل زخرفات النوافذ، وجذورَ الأشجار، وتواريخ المُدن، وتعبر أزمان ألمٍ، إلى العاشق في مَقَامِه، يقبضُ ريشة لها ألق النَّجمِ، ينتظرُ الحبيبةُ، ويخطُّ في صحيفته:

"يا قَينَةَ العُبَّادِ في سَامِرَاتِ الوَصْلِ، تَعَالي، فَالليلُ طَوِيل".



وحول نار المساء نجلس، يتراقص ظِلّانا خلفنا، حتى يصيرا ظلا واحدا، ونَغَمَ قصيدة جديدة يُسمعني إياها لننام، وفي الحُلم، يبزغ الحبُّ مثل نور نهار جديد، وتسود الخُضرة مساحة البصر. ونصحو على أرض شاحبة مجدبة، وفضاء من صُفرة جافة، ولا صوت، لرقرقة ماء، لخفقات أجنحة طائر، ليس سوى دبيب رمل يصعد في العروق المهشَّمة، لشجيرات مستغرقة في موتها. كانت الأرض جميعها مثل كلمة مبهمة يتوقف على فهمها وجُودُكِ، معلقة أمام بصركِ، ولا تدركين لها معنى. سنوات امتلأت بالصلابة والفناء، حتى كنَّا نأكل قصائدنا، والأرغفة اليابسة في حكاياتنا القديمة، ولا جدوى.